جورجي امادو

عَرَق

تعريب :
فارس غصوب

عَرَق

الكتاب: عرق

التأليف: جورجي امادو

التعريب: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ - ت: ٣٠١٤٦١ - فاكس: ٣٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

إلى أمي وماتيلدا

إلى البيرتو باسوس غيمارايس
وكلوفيس أموريم
وكارلوس اشينيكيه الأصغر
ودياس دا كوست
وإديسون كارنيرو
وسانتا روزا

الجرذان

- ١ -

مرّت الجرذان دون أن تبدي أيّ إشارة ذعر، بين الرجال المتوقّفين عند أسفل الدرج المعتم، ليلاً ونهاراً، والذي يرتفع داخل البناء كنبتةٍ متعرِّشة في جوف جذع شجرة. رائحة جثة، رائحة غسيل وسخ كانت تفوح في المكان دون أن يشعر بها الرجال الذين لم تقلقهم حركة الجرذان التي تصعد وتهبط متسابقة لتتوارى في الظلمة.

أحد الرجال، أحمر وقصير القامة، يمسح عرق وجهه بكمّ قميصه، بينما الآخر، وهو زنجيّ عملاق، كان يترك العرق يلتمع على جبينه الفاحم، والثالث الذي كانت أسنانه الناتئة تضفي عليه هيئة الكلب البريّ وقميصه ملتصقة بجسمه، يمضغ سيجارة مطفأة.

وصلوا من "فيل باس" (المدينة الواطئة)، وبعد أن تسلّقوا الـ"مونتي دو تابوياو"(*)، اجتازوا الـ"مونتي دو بيلورينيو"، وتوقفوا هنا عند الدرج الهائل الارتفاع.

ـ هذا الدرج يجلب السلّ إلى أيّ كان، قال الأحمر.

(*) طلعة تابوياو.

صفّر الزنجي مبتسماً. صاحب الأسنان الناتئة هو الذي أجاب:

ـ أتريد أن تأخذ المصعد يا شيكو؟

ـ قد يكون ذلك أفضل بكثير.

تطلّع الزنجي بعينين مفتوحتين:

ـ هذا الجرذ هو من السمنة بحيث لم يعد يستطيع الركض.

ـ لا أعرف أين يحصلون على ما يأكلون ليسمنوا...

مسح شيكو جبينه مرة ثانية بكفّه، ثم غمغم شيئاً ما بصوت منخفض واجتاز الدرجة الأولى حيث تبعه الآخرون، عندئذٍ رمى أوغوسطو السيجارة العديمة الفائدة أرضاً، وبدأوا يصعدون الدرج مقوّسي الظهور ورؤوسهم إلى الأمام.

كان الجرذ السمين يراقب من أسفل الدرج.

كانت في هذه اللحظة، تنزل من الطبقة الثالثة، فتاة ترتدي ثوباً أزرق. اتكأت على مسند الدرابزون لتتيح لهم المرور. وتابعت نزولها متسلّلةً كالظل في العتمة وبين الجرذان.

وعندما صعدت الرائحة "الجيفيَّة" فجأة إلى أنوف الرجال، اكتشفوا أن الجُرذان كريهة.

- ٢ -

لم يكن البناء متمادياً في الضخامة إذا نظرت إليه من الشارع. كما لم يكن بوسع أحد أن يعيره أيَّ أهمية. صحيح أن صفوف النوافذ كانت تنكشف للعين حتى الطبقة الرابعة. ربّما الطلاء الشاحب هو ما كان يزيل طابع الضخامة عن البناء، ويجعله يبدو كغيره من الأبنية، عمارة قديمة مسحوقة في الـ"مونتي دو بيلو رينيو"، من الطراز الكولونيالي، عارضاً بعض الأوزوميلوس(*) القليلة. ربّما، غير أن الواقع هو أن البناء كان فسيحاً: طبقات أربع، حجرة درج، تخشيبة في الجزء الخلفي، ومقهى فرننديز في المقابل، وفرن عربيّ سرّي وراء الموقع، مائة وستّ عشر غرفة يشغلها ما يزيد على الستمئة نسمة، عالم، عالم نتن عديم النظافة، والأخلاق، عالم يعجّ بالجرذان والشتائم والبشر. عمّال، جنود، أعرابيون ذوو لغة مشوهة، باعة متجولون، نشّالون، مومسات، خائطات، حمّالون، أناس من كلّ الألوان، ومن كافة الأصقاع، وبجميع الأزياء، كانوا يملأون البناء. يشربون "الكاشاسا"(**) في مقهى فرننديز، ويبصقون على الدرج حيث غالباً ما كانوا يبولون. المقيمون مجاناً هم الجرذان فقط دون سواهم. زنجية هرمة تبيع

(*) بلور مربّع ومطلي بألوان لامعة - غالباً زرقاء وبيضاء - يغطي واجهات المنازل التي تعود إلى حقبة الكولونيالية.

(**) نوع من العرق المستخرج من قصب السكر.

أمام المدخل "الأكاراجه"(*)، و"المنكوزا"(**)؛ من وقت لآخر كانت تصدر من الطبقة الرابعة أنغام قيثارة تختلط بأصوات بعض المقيمين العرب الذين يتماحكون في سكينة الغرفة الخالية من الكهرباء.

تتجادل نسوة، في الطبقة الثالثة، مع أخريات في الطبقة الثانية، فتسمع كلمات نابية قذرة.

كان معظم الرجال ينصرفون، عند الصباح، فيزداد حجم أصوات النساء اللواتي يغسلن الثياب، ضجيج ماكينات الخياطة، سعال مسلولة في حجرة الدرج. ويعود الرجال في المساء متعبين، فيفترسهم الدرج الواحد بعد الآخر.

(*) نوع من الفطائر المصنوعة من عجين الفاصوليا السوداء والمقلية بزيت البلح مع صلصة حادة مع بصل وقريدس مجفف وهذه الفطائر هي من المأكولات الأكثر شعبية في المطبخ الأفريقي الباهياني.

(**) ذرة مسلوقة مضاف إليها سكر وحليب وجوز الهند وقرفة.

حجرة الدرج

- ١ -

ـ يا لـهذا الحرّ؟

لا تـرى حجـرة الـدرج الشـمس لأن الفتحـات القائمـة في الجـدران لا تستطيع إمرارها. غير أن الحرَّ كان يفضـح وجودهـا. في زاويـة مـن الغرفـة، كان يغلي قدر من الفخّار فوق كانون من الفحم بينما بعض الأصوات تصل من الغرفة المجاورة.

رفعت دونا ريزوليتا عينيهـا عـن الثـوب الـذي كـانت تخيطـه، ونزعـت نظارتيهـا المربوطتـين بخيـط وردي، ونظـرت إلى الفسـتان الـذي كـادت أن تنجزه، وتنهّدت. حاولت أن تقول شيئاً، ولمّا لم تجد الكلمة المؤاتية، مكثـت جامدة، يدها في الـهواء، ونظارتاها معلقتان.

أسرعت ليندا لمساعدتها:

ـ الآن يا دندينيا. لم يعد بإمكانها أن تعترض.

ـ ستعترض دائماً. لا يأتي العمل مرّة أبداً كما هي ترغب. ما الفائدة؟

تطلّعت ليندا إلى الكانون، وقدّمت رأسها وتنشقت. لم تكن تنبعث مـن القدر أيّ رائحة. أخفضت عينيها حزينة.

ـ هل لاحظت يا دندينيا، كم هي عديمة الطعم هذه الفاصوليا؟

ـ بدون طعم أيتها الصغيرة؟ صحيح...

طرق الباب، الدقات مألوفة، شبيهة بدقات من لا ينتظر إذناً ليدخل. دخلت جوليتا بقميصها الداخلي.

ـ أنا هكذا بسبب الحرارة.

جلست على السرير وأفرجت عن فخذها بوضع وقح، ثم راقبت الكانون، وأمسكت بالثوب.

ـ يا لها من رائحة شحم نتن! أليس كذلك يا ليندا؟

وبما أن الجواب لم يأت تابعت:

ـ يتكدس في هذا الكوخ أناس من جميع الأجناس هل لاحظت يا دونا ريزوليتا الجارة التي تسكن في الجزء الخلفي؟ تقضي حاجتها في ورق الجريدة كي لا تنتظر فراغ المراحيض. أقسم أنها لا تمسح فرجها. لم تنزل مرة لتغتسل.

ـ إنها امرأة نشيطة جداً.

ـ إنها قادرة! لماذا؟ لكي تعيل ابنها، هذا التافه... رجل مثل هذا، في التاسعة عشر من العمر، سمين كالحمار، لا يقوم بأي عمل! يقضي أيامه مدحوشاً مع بنات تابوياو، أو في يانصيب البهائم، ولا يرجع إلى البيت إلاّ ليأكل ويأخذ مالاً؟ يا له من حرّ، يا إلهي!

أمسكت بقميصها ونفضته لتهوّي فخذيها.

وهذا الفستان يا دونا ريزوليتا؟ يجب أن تطردي هذه الإسبانية؛ فهي قبيحة كالوطواط، وتصرُّ على ارتداء فساتين صبيَّات مراهقات. أراهن أن في نيَّتها أن تزرع قروناً في رأس "ليون"... كم تدفع؟

ـ ثلاثون ألف ريس للاثنين. بدل الإيجار الشهري للغرفة.

أجالت جوليبتا بعينيها في الغرفة.

ـ غرفة جميلة. ورائحة الشحم النتنة هذه؟... صفّرت.

ـ ثلاثون ألف ريس. من جهتي، إذا أتيح لي أن أقع على شخص غنيّ سأذهب معه. فكل ما أريده هو أن آكل وصحني مليء. وفوق رأسي سقف.

كان الحرّ يزداد بشدَّة. هي ساعة الظهر تقريباً. خفضت دونا ريزوليتا عينيها على الثوب الذي تخيطه. وشربت ليندا جرعة من الماء ومسحت جبينها المبلّل بالعرق بطرف منشفة، ونظرت إلى لوحة معلّقة فوق السرير تمثّل مشهد طفل يتناول قربانته الأولى.

بعيني هذا الإسباني المحشوّ بالدولارات، سأضاجعه حالما يريدني فوراً.

قالت ليندا ناصحة إياها:

ـ لماذا هذا التصرّف يا جوليبتا. باستطاعتك أن تتزوجي.

ـ أن أتزوج لأتخلّص من الجوع أيتها الحمقاء! لقد تعبت من الزواج. إذا قدِّر لي أن أزدرد الحياة كلها فذلك كلّه لن يعوّض عليَّ عمَّا عانيته من صيام. لا يفكّر أحد بالزواج غيرك. تنتظرين شخصاً غنياً في سيارة، أليس كذلك؟

لم تجب ليندا.

ـ لا تغضبي. أنا لا أقول ذلك بنيَّة سيّئة. إنك تقرأين روايات وتفكرين بحماقات. من ناحية الاستحقاق، لا شك أنك تستحقين زواجاً لائقاً. غير أن الأمر صعب. على كل حال، أنا لا أنتظر. هل تسمعين؟ لكي أحصل على بيت لي، وآكل بشكل أفضل، سأمنح بكوريّتي. لا فرق عندي!...

دقت ساعة الظهر في كنيسة "سان فرنسيسكو".

ـ لنتناول الفطور؟

ـ شكراً يا ابنتي! أنا ذاهبة إلى غرفتي...

سحبت دونا ريزوليتا القدر عن الموقد. كان الحرّ خانقاً. التفتت جولييتا وقد وصلت إلى الباب...

رائحة الشحم هي هناك... في الخارج.

ابتسم الرجل الذي كان يخرج من بيت الخلاء لجولييتا، وهو يزرِّر فتحة بنطاله.

ـ ٢ ـ

أخذن يمضغن الفاصوليا القاسية، وقطع اللحم الجافة.

ـ هذا يتلف الأسنان.

سحبت ليندا، بطرف سكينها المكسور القبضة، حشرة ممرَّغة بالفاصوليا ثم نظرت إلى الصحن وهي تتقيأ.

- ٣ -

خلعت ثوبها، تأملت لوحة المناولة الأولى، وفتحت "الشاب الأشقر" للكاتب ماشيدو. الرطوبة ثقيلة كالرصاص. تركت الكتاب، وأثبتت الشرشف، والأفكار تجول في خاطرها. انسابت بقّة على فخذها الأبيض المتناسق الجميل. غرزت فيها ظفرها، فترك الدم الأسود بقعة صغيرة على الفخذ؛ لكنها رأت بقعة الدم كبيرة فراحت تبكي بصوت خافت وهي ملتصقة بالمخدّة. تذكرت جوليتا.

في هذه اللحظة، كانت دونا ريزوليتا تدوس لتسيير ماكينة الخياطة؛ والمسلولة تسعل هناك في البعيد، وشخصٌ ما يفتح باب المرحاض.

علا صوت جوليتا:

ـ أغلقوا هذا الباب. أفلا تشمّون رائحة البول هذه؟

كانت الشمس تتهالك على القرميد.

- ٤ -

الرطوبة مؤلمة كضربات قبضةٍ عظيمة، تجتاح حجرة الدرج والناس. تمدّدت ليندا على سريرها، وأفرجت عن فخذيها تتملكها رغبة هشّة لأمور مجهولة تسيطر عليها. استسلمت وهي تتأرجح مع رتابة صوت ماكينة الخياطة التي تدور تحت قدمي دونا ريزوليتا اللذين لا يعرفان الكلل. تركت

الكتاب العديم الفائدة، وحدَّقت في عرَّابتها فوجدتها غريبة، شديدة الهزال. لم يسبق أن لاحظت من قبل كم هي هزيلة، وجافة، وقصيرة القامة، وذات وجه متقلّص، وعينين تعبتين مطبقتين تقريباً وراء نظارتيها. تبدو وكأنها مصنوعة من أعصاب. أعصاب بدون فائدة، عاجزة عن القيام بأي حركة. رأسها المنحني فوق الماكية، تجتاحه خصل شعر بيضاء بدأت تتغلّب على السوداء منها، كحزب سياسي ضعيف يكتسب مؤيدين جدداً شيئاً فشيئاً. سالت قطرة من العرق على أنفها فأرعشتها. والذباب الذي كان يطير في الغرفة يحطّ من دقيقة إلى أخرى ثم يعاود طيرانه بعد لحظة قصيرة. والشمس وكأنها ألهة كانت تحتجب وهي منظورة. تدوس دونا ريزوليتا دون توقّف أو تعب، يلاحقها نظر ليندا الكئيب الذي لم يكد ينطفىء حتى نامت إلى جانب رجل ثريّ رآها تمر، فوقع في حبّها، وتزوَّج منها في نهار رائع بشمسه الفاترة، وبنسيمه الدافىء، وبرتل السيارات الذي يواكبها، وهي في طرحتها، وعقدها، والفستان الذي خاطته لها عرَّابتها التي كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق؛ وما أن انتهت الحفلة حتى كان الثلاثة يعيشون في بيت صغير مليء بالأثاث والتحف، شبيه بمقرّ الدكتور فالادارس. والشيء الذي أنهى مسيرة الإكليل هو المسلولة التي كانت تسعل دون توقّف موتّرة أعصاب دونا ريزوليتا التي أوقفها عصابها عن الدوس على الماكينة. ولم تكن عودتها إلى الخياطة بسبب هذه المسيرة، بل بسبب موسيقى رقصة "الفوكستروت" المنبعثة من راديو غرفة الطعام في عشيَّة ممطرة، تلك التي حلّت محلّ مسيرة العرس.

كان الحرّ يعيق التنفّس، ويبلّل جبين ليندا.

- ٥ -

يراقب الـهرّ باستمرار من موقعه القريب من الباب. غير أنّه عندما تشـتدّ الرطوبة، يهبط الدرج غير آبـهٍ بـالجرذان الـهاربة، ويتمـدَّد في الفنـاء بحـوار الغاسلات فوق العشـب المجـزوز، ويتدحـرج لاعبـاً بكريـات الـورق متلقيـاً رفسات أقدام النساء اللواتي كان يوسخ غسيلهن.

عند غروب الشـمس، وفي السـاعة الـتي تضـيء فيهـا الأنـوار، يعـود إلى حجرة الدرج، ويدخل الغرفة من طاقة الباب، ينتظر مترقباً وقع الخطى.

عندما وصل "سيفيرينو" كان يغرز أضـافره في بنطالـه، ويتمسّـح بسـاقيه فيرمي الإسكافي الكرّاس على السرير الضيق، ويأخذه بين ذراعيه.

- زوك!

يقول ذلك ويقذفه في الـهواء فيمـوء زوك مسـروراً. ثـم، يطرحـه علـى السرير ويحكّ له بطنه. فيدور الـهرّ على نفسـه، عـدَّة دورات مخدّشـاً كفَّـي الرجل الخشنتين بأظافره الحادَّة، ثم يتدحرج الاثنان، والـهرّ ملتف على ذراع سيفيرينو ينهشه ويخدِّشه.

- زوك! "نيغرو"، حان وقت العشاء.

ينتفش شعر زوك الأسود، وينتصب ذيلـه، بينمـا ينصـرف سـيفيرينو إلى فتح الصرَّة الصغيرة.

- لقد أحضرت لك "جونبون" يا زوك.

يسرع الـهرّ فوراً بالقفز والدوران حول صاحبه، ويمـوء، حتى يتمسَّـك بقطعة "الجونبون".

بعد الانتهاء من تناول طعام العشـاء، يشعل سيفيرينو الشـمعة، ويفتـح الكرَّاس وهو مطبوعة تدعو إلى الفوضى، ويبدأ بالقراءة حتـى ينخفـض نـور الشمعة وتنطفىء كلياً. عندئذٍ، يحمل الـهرّ إلى الثقب الذي هـو بمثابـة نـافذة وينظر إلى المدينة الاستعمارية.

ـ ينبغي أن نحطّم لك هذا يا زوك! كل شيء يسير عكـس مـا يتوجّـب. أمَّا زوك فيلحس أنف صاحبه.

ـ أنت برجوازي وقح يا زوك.

كان لسيفيرينو عينا ولد كبيرتان وحنونتان، وصوت رصـين هـادىء ذو نبرة إسبانية. يكسو رأسه الكثير من الشعر الأبيض في حين كـان لا يـزال في الأربعين. طويل القامة، ذو رأس جميـل وعنيـد، يخـترق جبينـه شـريان أزرق اللون، بارز.

ــ الكهنـة ــ الأغنيـاء... جميعهـم... تحطيـم... وينـزع قميصـه الملطـخ بالشحم الأسود، وبنطاله المصنوع من النسيج المحبوك، والمرقّع فـوق ركبتيـه، ويضع زوك عند أقدام السرير وينام، بينما تنبعث ممَّا تبقّى من الشمعة رائحـة مثيرة للقيء.

- ٦ -

ثمن علبة دهن الشعر في محلات "لا رانب ـ دو ـــ سافوتييه"(*) خمسمئة ريس؛ ويفضّل ألاّ يتناول قهوته الممزوجة بالحليب، ورغيفه في "بار إليغان"(**) على أن يتخلّى عن شراء هذه العلبة. غرز إصبعه في المرهم، وأخذ قليلاً منه ومسح به شعره الأسود الناعم، ومسّده بالمشط فاصبح براقاً لمّاعاً. ثم نظر بانشراح إلى صورته في المرآة، المعلقة تحت "بورتريه" أمه، وتمشّى طولاً وعرضاً، ملتفتاً تارة إلى الكمان وطوراً إلى المرآة كما لو أن رائحة دهن الشعر الرخيص الثمن تبدّد قذارة الغرفة. أما عينا المرأة العجوز فتبدوان، وكأنهما تلاحقان حركاته من الصورة.

ـ "كارلوس فرانسا إه ريس"... حفلة موسيقية كبرى... عازف الكمان البرازيلي الشهير يعزف اليوم في باريس... جميع المقاعد محجوزة منذ أسبوع.

خيِّل إليه أن عيني البورتريه تبتسم بكبرياء. تابع.

ـ لقد كرّست هذه الحفلة نهائياً كارلوس فرانسا إه ريس. كل ما في باريس من أناقة كان هناك ليستمع إلى ساحر الكمان القادم من أميركا الجنوبية ليبهر أوروبا... تعرّف على الجغرافيا وعلى المجد، وانطلق في أسفاره. باريس... برلين... فيينا والـ "فالس"(***) ... هتافات. روما. الجماهير

(*) منحدر الإسكافي.

(**) المقهى الأنيق.

(***) نوع من الرقص الدائري.

المحتشدة في المحطة بانتظار قدومه... أثينا، الفتيات اللواتي تطلبن تواقيعه. زار الجمهوريات الصغيرة، ووصل إلى "الريو" حيث التقى رئيس الجمهورية الذي أسرع لاستقباله. كارلوس مفخرة البلاد. أزهار. صفوف من الفتيات. حفلة موسيقية في المسرح البلدي باللباس الرسمي، وخطب. دعوات ملحَّة لزيارة بيونس إيرس.

رأى كارلوس دموعاً في عيني البورتريه. غير أنها كانت عينيه هو ـ أعلنت الساعة في البعيد السادسة. نهض. أخذ الكمان ودفتر "السامبا"، وتوجَّه إلى مقهى مدريد حيث يشكل واحداً من عازفي جوقة "الجاز".

في هذه الساعة، أطبق الظل على البورتريه وعلى علبة دهن الشعر.

- ٧ -

دخلت "نايير" فائقة الأناقة. فاجتاحت الغرفة روائح عطريَّة ناعمة. رمت حقيبتها على السرير، فأسرعت جوليتا وفتحتها.

ـ خمسون ألف ريس فقط؟

ـ إنه بخيل!

ـ ويثير مثل هذا الاندهاش...

كنت أقول صراحة إنه لا يستحق مثل هذا العناء... فهو يرهقني منذ شهرين.

ـ ألم يعدك بأن سيهبك عقداً؟

عقداً وأساور من ذهب، ولست أدري ماذا أيضاً. كنت أحاول التهرّب. أمّا اليوم فقد ذهبت. صدقيني إن قلت لك إن الأمور قد ساءت منذ غادر الكولونيل "ميكيل". لقد قادني الحقير إلى منزل "أنطونيا".

ـ ذاك القصر المحتقر...

طلبت أن أشرب. فأعطاني زجاجة بيرة. تم أعطاني خمسين ألف ريس.

وأومأت بغضب:

ـ "في المرة القادمة، سأجزل لك العطاء. لم أسحب اليوم مالاً". المرة القادمة. قذارة.

ـ يا له من أبله!

ـ وقذر، يا أختي... سرواله وسخ... رجل سافل!

بينما كانت تتحدَّث، راحت تغتسل في الطشت.

ـ الناس هنا، تساورهم الشكوك.

ـ هذا آخر همومي. أنا أكسب قوتي. فليبحثن عمَّن ينكحهنّ! خسرت وظيفتي لأنني رفضت أن أضاجع ربّ العمل. ولم أجد، حتى الساعة، وظيفة أخرى. كان من واجبي أن أترككما تموتان جوعاً، أنت وجوليا، أليس كذلك؟ أنا أعطي ما هو لي... فما يغيظهم هو أن يكون عندي فستانان أنيقان، وأن أتضمَّخ ببودرة الرزّ والعطر. وبعد، أفلا يقضين أوقاتهن في التمرّغ على الدرج؟ كلّهن قحباوات!

ـ صحيح. باستثناء السيدة "ريزوليتا" وليندا. والبقيّة لا تساوي قيمتهن

ضراطاً واحداً...

ـ وليندا أيضاً ستكون نهايتها سيئة. هي كسولة من الطراز الأول. لم تمدّ يد المساعدة، ولا مرة، لـهذه المسكينة العانس. سترين يوماً ما...

ـ أخفضي صوتك!

ـ في النهاية، ما لي ولـها ـ كانت تتضمَّخ ببودرة الرزّ.

ـ أحضري لي العشاء، يا جولييتا...

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ سأقصف مع أوسكار، وبعض أصدقائه في الـ «أمارالينا».

ـ كم أتمنى لو أكون برفقتكم!

ـ أصمتي أيتها البائسة. أتريدين أن تعيشي في الضياع أيضاً؟

ـ هاه! تربينني لأتزوج، شأن ما تفعل دونا ريزوليتا مـع لينـدا؟ وداعـاً يـا حلوتي!

ـ فكّري على الأقل بجوليا، يا صغيرتي. فبعد أن تتزوج، باسـتطاعتك أن تفعلي ما تشـائين. ولكـن إذا ضللـت منـذ الآن فستفسـدين مستقبل الفتـاة الصغيرة.

ـ صحيح. غير أنها لا تُري هدايا خطيبها لأحد... ماكرة.

رفعت نايير الفنجان.

ـ أين هي؟

ـ خرجت بصحبة خطيبها لتقوم ببعض المشتريات لجهازها. أنا ذاهبة إلى المراحيض.

ـ هكذا بثوب السرير؟

ـ وما الضرر؟

وضعت نايير الفنجان وصاحت باتجاه الغرفة المجاورة:

ـ دونا ريزوليتا! دونا ريزوليتا!

ـ ماذا يا دونا نايير؟

ـ هل تعيرينني إبرة وخيطاً؟

ـ بالتأكيد.

ـ ليس لأكثر من ثانية، لأخيط رباطاً ارتخى.

- ٨ -

هناك قاعة مشتركة تضمّ حوض المطبخ الذي يستخدمونه لغسل وجوههم، كما تقوم في زاوية منها المراحيض المليئة بقصاصات الصحف، والمياه الصفراء التي تنساب عبر القاعة.

فتحت فيرا الحنفيَّة، وجعلت من كفّيها حَذَفة، وراحت تشرب.

ـ المياه فاترة...

ألقت التحية على دونا ريزوليتا.

ـ صباح الخير.

ـ نهارك سعيد يا فيرا. كيف حال أختك؟

ـ على حالـها، يا دونا ريزوليتا. تسعل وتتفل...

ـ ماذا يقول الطبيب؟

خفضت فيرا رأسها خجلاً.

ـ مضى شهر دون أن أتمكن من استدعاء الطبيب. فالمال غير متوفّر.

فتحت دونا ريزوليتا فمها، وبقيت صامتة. لم تجد ما تقول.

ـ والصيدلية... كل الأشياء غالية الثمن... الله وحده يعلم.

ـ لو كان بمقدوري، يا ابنتي... ولكن ما العمل. الأحوال سيئة جداً.

ـ شكراً يا دونا ريزوليتا. أعرف أنك...

مسحت عينيها بثوبها، وانصرفت شبه راكضة نحو الغرفة، لكـن الجميـع سمعوا تنهداتهـا. فحجـرة الـدر ضيّقـة، والغـرف ضيّقـة، لا نوافـذ فيهـا ولا كهرباء.

غرينغو

- ١ -

بدرت منه حركة متسرّعة، فسقطت الحُقيبة المليئة بالبضائع الرديئة على السرير، وقد كانت معلّقة في كتفَيه حيث ترك حزاماها المصنوعان من الجُلد الأحمر الفاهي آثاراً دامية فيما مضى. أما اليوم، فلا.

يعيش منذ عشرين سنة على هذا المنوال؛ ويندهش عندما يسمع أحد الناس يشيد بمواهب أشخاص يتقنون خمس لغات؛ بينما هو يجيد ثماني، بدءاً بعبرانية الصلوات ليهوه، وانتهاءً بصينيَّة حانات شانغهاي.

عمل كبائع متجوّل في بولونيا منذ عدة سنوات. وسُجن في روسيا ما قبل الثورة الكبرى كثائر، كما اجتاز المانيا من طرف إلى آخر، وزرع الهياج في صفوف العمال الفرنسيين أثناء الحرب الكونية، بالإضافة إلى انه شهد ازدهار اليابان، وشيخوخة الصين، حاملاً دون انقطاع حقيبته المليئة بالأشياء الصغيرة التي تفرح النساء والأولاد، والكراريس التي تحرّض على الإضرابات العمالية.

تعرَّف كذلك على أميركا الشمالية، وعلى مواطنيها البؤساء منهم والأثرياء. وباع "كزيرابيس" مكسيكية في ريو دي جانيرو، وخطر له وهو في العالم الجديد أن يتخلّى عن حقيبته المتعبة، وعن تجواله؛ فجمع ما تبقّى

لديه من نشرات في إحدى الزوايا، وفتح متجراً صغيراً للأكياس. إلاّ أن نشرات جديدة أغرقت أرباحه. فعاد إلى حمل الحقيبة بعد أن أفلس ولوحق؛ وها هو في باهيا، بسنيه الخمسين التي قضى عدداً كبيراً منها في السجن. وصل إلى هذه المدينة كمسافر في الدرجة الثالثة على ظهر باخرة تابعة لشركة «لويد» ناقلاً معه شحنة من المظلات الرخيصة الثمن، والحرير الاصطناعي، والألعاب، والسيارات الصغيرة، وكلمات نشيد الأممية، ومنشورات ثورية. أقام في الطبقة الرابعة من الـ ٦٨ في "مونتي دي بيلو رينيو" في هذا العالم من النازحين القادمين من أوطان متعدّدة وبعيدة حيث كان وحده يفهم الجميع لأنه وحده لا وطن له، ولا شرائع، ولا إله. يشعر، دون شك، بعطف كبير نحو أولاد المحلّة البؤساء، وكان وجهه النحيل الشديد الاصفرار بالنسبة للأنف الضخم، يغتم عندما يهربون لدى رؤيتهم إياه على الدرج، صارخين: "هو ذا اليهودي"... ويضحك. (ووجد المقيمون في البناء ضحكته وقحة) يوم أسمعه سيبريانو وهو زنجي قذر، ذكي النظرات، الجملة التي علّمته إياها أمه:

- السنيور إسحق، باع سيدنا...

لكن السنيور إسحق كسب صداقة سيبريانو بمسدس من الشوكولا، وها هما يثرثران الآن معاً في غرفة اليهودي حيث كل شيء مؤقّت، بدءاً من المستأجر حتى رائحة الثوم.

- ٢ -

ما أن صعد درجـات السـلّم الأولى حتـى سُـمع ضجيـج حذائـه موقظـاً النائمين، ومحدثاً ضجّة مزعجة.

يرتدي بنطالاً من النسيج المحبـوك، مهترئـاً عنـد الركبتيـن، ومرقّعـاً علـى الردفين، وقميصاً من الكليكوت (من القطـن الخشـن) المزخـرف بالمربعـات، والمتدلّي الأذيال. وهذا القميص المفكوك الأزرار يتكشف عن صـدر كثيـف الشعر. بينما أكمامه المطويّة حتى المِرفق تكشـف عـن ذراعيـن قذريـن. مـن الأرجح أنه في التاسعة عشرة، لأن لحيته بالكاد تظهر على ذقنه العريض. أمّـا شعره، عدوّ المشط والمقص، فيتدلّى على وجهه، ويغطّي أذنيه؛ في حين كان يحمل سيجارة بين أصابعه الوسخة الأظافر.

كان توفيق يتقدَّم وعيناه في الأرض، وأفكـاره في البعيـد، في "مونـتي دي تابوياو" في غرفة أنيتا.

- دع الناس ينامون.

- أتريدين أن تنامي معي؟

- إذهب وانكح أمك!

تابع توفيق طريقه حتى الغرفة القائمة في الجـزء الخلفـي حيـث يقيـم مـع والدته. دفع الباب المشقوق، وتحرى العتمة، وما لبـث أن بـدأ يميّز الأشـياء. أمه تنام في السرير الضيق الأوحـد. كومـة مـن الثيـاب الوسـخة تتكـدس في

إحدى الزوايا. المدفأة المطفأة تنام هي أيضاً. دخل الغرفة، وراح ينزع ثيابه وهو يصفّر. عندما أصبح عارياً شعر بالحرارة والرائحة. شمَّ رائحة إبطه، وضحك طويلاً.

شدَّ العجوز:

ـ أخرجي من هنا!

ولمّا لم تستيقظ، هزَّها بعنف.

فركت عينيها بظاهر يدها، وأصغت إليه.

ثم نهضت دون أي اعتراض، وتمدَّدت فوق الغسيل الوسخ وهي تنظر إلى ابنها الذي يصفر.

ـ ماذا تريدين أيتها العجوز؟

ـ هل شربت اليوم أيضاً؟

ـ ما يعنيك من هذا أيتها الشيطانة؟

غمغمت بالعربية كلمات لم تبلغ السمع.

صاح.

ـ إما أن تطبقي فمك، أو أن أحطّم أسنانك!

ـ أنا أمك.

سعلت المسلولة.

احتجّ أحد سكان البناء:

ـ كفى ـ هناك مرضى.

ـ إذهب واشتكِ إلى الأسقف.

التفت نحو العجوز الـتي كـانت تبكـي مستنزلةً على ابنهـا غضـب ا لله ومحمّد.

ـ وأنت، أيتها البهيمة الـهرمة، قلت لك أن كفّي وإلاّ ضربتك!

تقوقعت العجوز فوق كومة الغسيل الوسخ. وفي سـكون الغرفـة شـخير توفيق. همهمت قائلة: أيها الابن الشرير! أيها البائس! غير أن زخّة المطر التي انهمرت، والمزاريب العديدة التي تدفّقت لسوء حالة القرميد، جعلتها تنهـض وتبحث في الغسيل الوسخ عن أفضل غطـاء (كـانت تغسـل لبيوتـات غنيَّـة، وكثيراً ما كانت تجد أغطية أسرَّة جميلة) وتقترب من السرير متجنّبة إثارة أيّ ضجة، وتغطي ابنها الذي استيقظ وجذبها نحوه وقبَّل شعرها.

ـ نامي هنا أيتها العجوز.

ـ لا. لا مجال لاثنين.

ـ بلى. نامي.

وهكذا مكثا يستغفران الواحـد الآخـر، متبـادلَين القبـلات حتـى سـاعة متقدّمة من الليل، وغفيا متعانقين. ومن الباب المفتوح، يتراءى جسـد توفيـق العاري حيث تركت "أنيتا" آثار أسنان حادة لمومس عاشقة.

ـ ٣ ـ

يومها، كان عيد مولدها، ١٧ كانون الأول، أمَّا ما هو عدد السـنوات؟ فما من أحد يعرف سوى، ربَّما، تلك العجوز الصغيرة التي بقيت في إحـدى قرى بولونيا. لم تكن هي نفسها تتذكـر. لم تكـن صغـيرة. فشـعرها يسـتلزم

الكثير من الصباغ ليحافظ على سواده، تأمّلت ثدييها المترهّلين اللذين تحوّلا إلى جلدين ناشفين وساقيها الـهشّتين المليئتين بالشرايين النافرة، وصورة السيّدة العذراء المعلّقة على الحائط، ومحقنة، وبطاقات بريديّة مرميّة فوق طاولة صغيرة. فكّرت بخطيبها الذي لم يغادر القرية، والذي كان فتى جميلاً يعيش في الريف، ويعانقها في الأعياد. عندما جاء بها القوّاد، منذ ثلاثين سنة تقريباً، تعرّفت في الباخرة إلى المليونير الأرجنتيني دون أن تعرف كم دفع ثمناً لفضّ بكارتها. وقامت بجولة كاملة عبر مواخير أميركا اللاتينية، واكتسبت معرفة دقيقة بالناس، وأصبحت لا يفوتها سرّ من أسرار المهنة، وتذكرت أزمنة أمجادها القديمة. لقد درّت عليها مهنتها خمسمئة ألف ريس في بيونس إيرس، ثم ثلاثمئة ألف. استعادت في سانتياغو رقم الخمسمئة. أنشدت الأغنيات المثيرة في الحانات بصوت ذكوري، وعيني فلاّحة صافيتين. كان نصيبها من كوبا مئة ألف ريس ومليونيريين أميركيين. وفي ريو دي جانيرو مئة ألف ريس، وفنادق أنيقة. بعد ذلك بخمس سنوات، أصبحت تضاجع وهي مصابة بالسيفيليس، وغارقة في السكر، بحّارةً بخمسة آلاف ريس. وكان الألمان بلونهم الأشقر يذكرونها بوطنها البعيد.

بدأت، في باهيا، بعشرين ألف ريس، لينخفض السعر بعدئذٍ إلى الخمسة الآلاف، بعد أن تساوت بساكني البناية ذوي الجنسيّات المتعددة. تنزل، في الساعة العاشرة ليلاً، إلى الشارع لتقتنص من يدفع لها ثمن فطور الغد. لم يخطر ببالها أن ١٧ كانون الأول هو عيد مولدها إلاّ هذا المساء وهي تستعدّ للخروج، في القرية (وما الذي ذكّرها بها). كانت المناسبة مناسبة عيد، وكان المدعوون يرقصون في بيتها، وصديقاتها يحملن إليها الهدايا،

وخطيبها القبل. أما هي فكانت تغني بصوتها الذكوري.

ارتمت على السرير، واستعرضت تلك المشاهد، شاخصةً إلى البعيد. كانت أمّها تبتسم سعيدة، وشقيقاها يحيطانها بعطفهما. كان كل شيء حلواً وهادئاً! راحت تغني بصوت خافت أغنية منسيَّة. غير أنّها فكَّرت بالغد، فلبست ثيابها، ورشَّت بسخاء بودرة الرز الرخيصة الثمن، وخرجت.

عادت بعد ساعة بصحبة زنجي مسنّ ثرثار، في عنقه طوق مستعار وفي إصبعه خاتم:

ـ ما هي جنسيتك؟

ـ فرنسية ـ أجابت كذباً..

ـ هل أنت خالية من الأمراض!

ـ أوه، يا عزيزي! ما هذه الأفكار؟

ـ نعم... أنا أستاذ، وفي الوضع الذي أنا فيه...

ـ لا تخف يا عزيزي.

أطفأت القنديل.

بعدما خرج الزنجي، دعكت ورقة النقود. في بادىء الأمر، كانت أفكارها مبهمة، ومشتتة، غير أن صورة عيد مولدها، والبيت البعيد، لم يلبثا أن ظهرا بوضوح أمام عينيها. جثت أمام الصورة، وطلبت الغفران عن خطاياها. ثم فكّرت. لم تكن خاطئة. ذاك ما صنعه بها الغير. بحثت في داخلها عن بادرة ثورة؛ ولما لم تجدها ارتمت على السرير ونامت.

أغنية راقصة

- ١ -

كـانت قـد أنشئت داخـل الغـرف، غـرف أخـرى، باستخدام حواجـز خشبيَّة غير محكمة الالتصاق أحياناً. أما الثقوب فيجري سدُّها بكريـات مـن الورق أو القماش. حوَّلت الإسبانية التي كانت قد استأجرت الطبقة الرابعـة، الغرف الأربع والعشرين، والقاعات الثـلاث، إلى تسـعة وأربعـين شـقة تـدرّ عليها مالاً وفيراً.

اجتاز الرجال الثلاثة المنزل بكامله، وبعد أن حيُّوا المالكة، السيدة لويـزا، التي تحبحب الفاصوليا، دفعوا باب الغرفة الأخيرة، ودخلوا.

جلس الزنجي على الفراش، ولاحظ فوراً أن الثقب قد سدّ.

ـ أنظر يا شيكو، لقد سدَّت السيدة المرصد.

ـ القحباء. ساورها الشك!

ـ فقدنا السينما.

ضحك صاحب الأسنان الناتئة هازئاً.

ـ أنتـم حمير. مـا نفـع التجسّـس علـى عجـوز، إن لم تكـن مضاجعتهـا متيسّرة؟

اعترض الأحمر.

ـ عجوز، تثير الشهية... خاصة وأنا صائم.

كان صاحب الأسنان الناتئة قد خلع ثيابه ينتظر بدون جدوى نسمة منعشة.

ـ الطقس حار.

ـ على الأقل، بإمكانك أن تتمدَّد هنا... وعلى الرصيف؟

ـ يا له من يوم محرق. الأكياس كالنار.

كانوا يعملون في الموانىء في تحميل وإفراغ السفن التي تتنقّل بين مرافىء لا علم لهم بها. يقيم الجميع في الغرفة الضيقة، ويتقاسمون الفراش الوحيد الذي يمتلكونه. لم يخطر ببال أحدهم أن يذهب ويغتسل بالرغم من شدَّة الحرّ. استلقوا على الأرض وهم يتنفّسون بضوضاء.

ـ لم نعد نرى ساقي هذه الجرادة...

ـ دع هذه العجوز وشأنها، هنريك.

صمت الزنجي، وبادر صاحب الأسنان الناتئة قائلاً:

ـ عرفت أنها تناجي الأرواح. تذهب كل يوم إلى الاجتماعات التي تعقد لهذه الغاية لتسمع روح ابنها الذي قضى في حادث قطار كهربائي. كان جابياً...

والعجوز.

ظلَّ الصمت مخيّماً إلى أن قطعه صوت الأحمر:

ـ لا أتذكر والدتي. ترعرعت على الأرصفة وأنا برفقة العجوز. لم يكن

ثرثاراً، ولا رشيق اليد. أتذكر ذلك... تفِه... لقد سجنت وعوقبت...

صرَّ أوغستو على أسنانه:

ـ ما أعرفه أنا... هو أن أمي كانت خادمة عند إحدى العائلات... أمّا والدي فكان ابناً وحيداً... ذات يوم، طلب أن تكون أمي بالقرب منه...

ـ هل تزوَّجا؟

ـ أين رأيت ربّ عمل يتزوج من خادمة؟ في السينما ربّما! لم تلبث الخادمة أن رميت في الشارع. عندما أبصرت النور كانت أمي تعيش مع حوذي. كنت اتناول كأساً مثل البالغين. وهو يحبّ الشراب. ثم توفي في حادث، وبعد ذلك بشهر توفيت العجوز. أظنّ أن السبب هو...

كان سيقول الكاشاسا، لكنه تراجع...

ـ لا أعرف ماذا...

ـ أمر محزن!

تطلع الزنجي من نافذة المطبخ. ومن عمق البيوت الأخرى، كانوا يرون شبح جسمه ذي العضلات. أضحكه ذلك.

ـ فيما يخصّني، الأمر أقلّ مأساوية.

ـ ألم تعرف العبودية يا «نيغرو»؟

ـ لا. حتى ولا والدي. جدّي بلى. أتذكر العجوز المسنّ والدمغات الظاهرة على ضلوعه. عندما مات كان قد تجاوز المئة.

ـ هل يُسمح لي بالدخول؟

إنه إسحق. يطلّ دائماً وفي جيبه مناشير. استمع مذهولاً إلى قصة طفولة الزنجي الحرّ.

- ٢ -

لم يتذكّر هنريك في الحقيقة سوى ثلاثة أحداث. لأنَّ ذكرياته لا ترقى إلى أبعد من سبع سنوات. ما يتذكّره بوضوح، كان الشارع. البيت الأصفر قرب بيته الصغير الذي كان له باب ضيّق وباب ضخم، ونافذة عريضة، ويقع في أول شارع الـ "كينز ميستير"(*).

كتب أحد الأشخاص، بين النافذة والباب، باللون الأحمر الرقم – ١ – الذي باخ لونه مع الزمن. علماً ان هذا الرقم كان مدوَّناً على لوحة لّماعة علقت على باب المنزل الفسيح، هذا المنزل المتعدّد النوافذ، والمليء بالفتيات والأزهار، والذي يقصده ساعي البريد، كما يرتاده الشبّان: في حين أن منزل هنريك المتواضع هو مجرَّد زائدة في الشارع لانعدام الحياة الشرعية فيه على وجه التقريب. من هناك، تشاهد الـ "ترافرس - دي - راموس - دي كيروز"، ومن بعدها الـ "رانب - دي - سافوتيه" حيث الناس والقطارات تبعث الحياة. تحت الرقم - ١ - المتواضع المدوَن على بيته الصغير، كانت قد خربشت عبارة نابية طالما وعد والده أن يمحوها دون أن يفعل، إلى أن أزالها الزمن. تحوّل البيت اليوم إلى مسكن أنيق يشتمل في الأسفل على مستودع للثمار مليء بالمور والبرتقال، إلاّ أنه بقي لا يتجاوز في ارتفاعه نصف ارتفاع المنزل

(*) الأسرار الخمسة عشر.

الأصفر الذي أصبح الآن مخضرّ المياه، يحافظ على نوافذه العديدة، وأزهاره، وفتياته، ويجتذب الشبان مثبتاً أنه المنزل صاحب الرقم ـ ١ ـ هو بالنسبة لأولاد شارع الـ "كينز ميستير" رقم البيت المتواضع.

زنوج صغار وسخون، وخلاسيون وقحون ينزلون إلى الزقاق، ويشتبكون في عراك غالباً ما يكون دامياً، فيتدحرجون على الأرض، ويتلقّون ضربات هائلة دون أن يمتنعوا عن اختلاس الثمار عن بسطات الباعة، وعن رصد نهود الزنجيات البارزة اللواتي يجبن بابتسامات وديّة. يعيش أولئك الأولاد حياة ممتعة في قذارة الزقاق، ويقومون ببعض الخدمات لكسب بعض الفلوس. يشعرون أنهم أحرار بعيداً عن المدرسة، عن موجبات المناولة الأولى، هم أحرار بدون أحذية تقرقع، ودون حمّام يومي، في جوّ من الحياة المرحة اللاهية بالرغم من انعدام البحبوحة.

أول ما يذكره هنريك هو الطريقة التي خدعوا بها أنجيلو، الجار البدين للبيت الأصفر.

يشعر، اليوم، هنريك تجاه هذا الرجل بالشفقة. فقد وقع نظره عليه منذ بضعة أيام. إنه سمين جداً. يتعاطى التجارة، ينقل رزماً من جميع الأحجام والأوزان؛ له زوجة نحيلة، وأولاد لا عدَّ لهم.

ـ مسكين! إنه مضحك... لا يتخيّله أحد دون أن يضحك... عندما يتصوّر زوجته وهي تضربه وأولاده يصفقون. هذا المسكين أنجيلو هو نموذج مضحك؛ خُلق على هذا التشكل كي يسخر الناس منه...

ويضحك هنريك، يضحك مقهقهاً في حين يريد أن يشعر بالشفقة. يريد

أن يرثي لحاله، ولكن دون أن يقوى على ذلك. فيجلس.

ـ لا يملك فلساً واحداً. ينام على الرمل، يصطاد السمك ليلاً، ينقل أحياناً بعض الأحمال إلى مستودع المرفأ. لكنه يشعر أنه أرفع مستوى من الآخر؛ إنه حرّ، سيّد العالم، سيّد الهواء، صديق السهرة الشاردة، وظلال الأشجار. الآخر هو عبد المخزن، عبد زوجته وأولاده. من يعلم إن لم يكن جدّ هنريك عبد جدّه؟... الحفيد، ليس عبداً لشيء.

حصل الأمر كالآتي: كان أنجيلو في التاسعة أو العاشرة من العمر. وأبوه غنيّ، يملك البيت الأصفر، ومخزناً لبيع البقالة بالجملة، ومظلّة عملاقة رمادية لا تفارقه أبداً. أمّا أنجيلو فكان بديناً يسير متمهلاً متبختراً إلى حدّ ما، لا تفارق الابتسامة شفتيه، ابتسامة رضى دائم. ذو بشرة ناعمة متورّدة يشبه إلى حدّ ما المرأة الثريَّة التي كان الشارع يلغط باسمها، والتي كانت تقيم مع كلبها المرفّه في الرقم ـ ٢٢ ـ.

ما آن استقرّ في البيت الأصفر حتى حاول أنجيلو أن يصادق السوقيين، فوجدهم رهيبين يألفون المشاجرة، يتمتعون بخبرة واسعة في موضوع العلاقات الجنسيَّة. تلقّى منهم تهديدات كثيرة، وعروضاً مشبوهة، غير أنه لم يستطع أن يجاريهم، ولا أن يسهم في سرقة الموز والزعرور. وفي الأيام التي يذهبون فيها لرصد نهود الزنجيات، كان يتبعهم في المؤخرة. هكذا، عندما توجهوا لمراقبة زنجية تبول في أرض بجوار الـ "رانب ـ دي ـ سافوتييه"، اعترض، وكان ذلك أول موقف جريء يتخذه تجاههم قائلاً: هذه خطيئة. ممّا دفع بجزوينو، وهو خلاسي برأس قرد، وشيطان دون منازع أن يشتمه قائلاً:

ـ أنت لست رجلاً ـ نعم. يقال إنك تستسلم لمن بريد أن...

أحمرَّ وجه أنجيلو، وبكى، وانسلخ نهائياً عن تلك الزمرة وسط فرح العائلة. أما العصابة التي انصرفت لتشاهد الزنجيَّة تبول، فلم تعرف إلاَّ بعد فترة طويلة أن أنجيلو قد تعرَّض مراراً عديدة للقصاص بسبب معاشرته إياها. وبالرغم من ذلك، سخروا منه.

في أحد أيام الآحاد المشمسة. بينما هو عائد إلى البيت، بعد مناولته الأولى، برفقة أبيه الذي لا يفترق عن مظلته، وأمه البدينة، وأخواته الثلاث المحجَّلات المزوقات كونهنَّ برسم الزواج؛ وبينما كان يسير مشرق الوجه ويداه مضمومتان الواحدة إلى الأخرى، داس، دون انتباه، على قشرة موز مرميّة في الشارع، فتزحلق وسقط على الأرض ملطخاً ثوبه الأبيض، فما كان من أفراد الزمرة الذين رأوه من أعلى الطلعة إلاّ أن راحوا يصيحون ويسترسلون في الصياح إلى درجة لم يستطع معها أنجيلو أن يدرك كم استمرَّ هذا الصراخ. فبكى. ويبدو أن ما أبكاه ليس سقوطه بل غيظه.

ـ أراد أبي أن يضربني. لكن أمي لم تسمح بذلك. وأدَّى الأمر إلى نقاش حاد. كان والدي يحترم البيض، أما أمي فتكرههم.

- ٣ -

يتذكّر هنريك أيضاً الصوت الذي كانت تقطعه قهقهات الضحك الرنّان الجزل عندما شاهد للمرة الأولى، زنجيَّة تبول. علق المشهد في ذاكرته لروعته. يوماً من الأيام، كانوا يتناقشون حول موضوع تكوّن البشر، وكان

قد وُلدت لجوزيه غوغو أخت صغيرة، وقصدوا البيت الذي تغمره فرحة العيد، ليزوروا الطفلة. تأملوا ملياً أعضاءها التناسلية، وبعد إضافة ما رأوه إلى ما أسرَّ به لهم رفاقهم الأكبر سناً، توافقوا كلياً على الفارق بين الرجل والمرأة. بقي أن يعرفوا كيف تبول النساء؛ ذلك ما ناقشوه طيلة أربعة أيام دون أن يتوصلوا إلى نتيجة مقنعة؛ أخيراً، وذات يوم ذهب هنريك برفقة بالدو، والخلاسي جزوينو، ليراقبوا الزنجيات اللواتي تبلن على الشاطئ. كانت الضحيَّة التي وقع اختيارهم عليها امرأة مسنّة مجنونة، تتسول وهي تغني. تبعوها لفترة طويلة عبر الشوارع والأزقة. كانت تنشد مزيجاً من الصلوات والأغاني اللاذعة. في آخر المطاف، وبعد أن طالت المسيرة، توجّهت إلى الشاطئ وهم في إثرها. لدى وصولها إلى هناك، شمّت الأرض، ثم رسمت بإصبعها دائرة، ورقصت حولها بينما هم يراقبونها مختبئين وقلقين. بعد ذلك، وبدون أن تتوقّف عن الرقص، رفعت العجوز، أولاً، ثوبها، ثم قميصها، اتخذت مكاناً لها في وسط الدائرة، بعد أن خطت ثلاث خطوات إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء بشكل احتفالي (كما في قدَّاس احتفالي)، وتوقّفت عن الغناء. هنا، سمعوا "خشَّة"، ورأوا نافورة الماء. عند انتهاء العملية، انسحبت العجوز بصمت، واندفع الأولاد نحو مكان الذبيحة، ووقفوا مشدوهين. كانت الدائرة تحيط هندسياً بالمياه الكريهة الرائحة، وما من نقطة خارج الخطّ. ذلك ما لاحظه الأولاد بتأنّ قبل أن ينصرفوا للبحث عن رفاقهم. الحق يقال إنه لم يسبق لهنريك أن ناقش بقدر ما فعله ذلك اليوم حول سؤال: لماذا تبول النساء في دائرة بعد أن يُغنّين ويرقصن. ظهرت تأويلات عديدة. أمّا ما انتهى إليه الأمر فهو التسليم برأي

بالدو:

- إن لم يفعلن ذلك يدخل الشيطان إلى أجسادهن. أما بهذه الطريقة فيبقى الشيطان مسجوناً داخل الحلقة، ويبلن عليه.

لم يتوان الأولاد عن رؤية امرأة أخرى تبول. من هنا، يقضون معظم أوقاتهم مختبئين قرب الشاطىء. أخيراً، أتت زنجية صغيرة، وبالت دون أن تغنّي أو تصلّي. فشرح ذلك بالدو بقوله: إن هذه الزنجية تحمل الشيطان في جسدها. لم يكن هذا التفسير مقنعاً نظراً لأن اللواتي تبعنها لم تقمن بأية رقصة. وهكذا ظلّ الأولاد في حيرة من الأمر، حتى وصل رجل وامرأة وبالا، لا كما يبول الناس عادة، بل وهما متعانقان يتأوهان. لغز، وضع الأولاد مجدداً في عالم من الأسرار أمسوا لا يفارقون الشاطىء.

- ٤ -

الذكرى الثالثة، كانت مورينا. مورينا، اليوم، قطعة رائعة، امرأة لرجل فحل. أقسم هنريك أنه مذ كانت مورينا في الثامنة من عمرها، كانت تجسد الخطيئة، بشعرها الأملس، وعينيها المشقوقتين بشكل رائع، والمليئتين كما بالماء الصافي، بتينك العينين الشيطانتين اللتين تنظران إليه وتدعوانه لأشياء شائنة.

هنالك غيرها من الفتيات: فرنسيسكا ابنة السيدة روزا، والتي كانت على جانب كبير من الملاحة. وليلينا، وروزينا. أما هو فلم يكن يرى إلاّ مورينا. تذهب مع الأولاد، تركض معهم، وتسرق الفواكه أيضاً. كانوا

يترصَّدون ليروا أفخاذهن ويداعبونها أحياناً. ذات يوم، ضرب هنريك جزوينو، لأن الخلاسي أراد أن يلمس فخذي مورينا. ثم لمسهما هو.

في إحدى الأمسيات، ذهبا في الظلام، وبالا متعانقين على الشاطىء. اعتقد أن ذلك (ولم يكن يعرف ما هو ذلك فعلاً) يجب أن يكون شيئاً حسناً. والمضحك هو أنه بال على فخذَي مورينا، قائلاً لها:
ـ أنت الآن زوجتي. وعليك أن تطيعيني.

هكذا بدأ غرامهما. كان بوسعه أن يقول بأن تلك الليلة كانت ليلة مقمرة فوق مقعد حديقة، تلفّهما الأزهار، وغيرها من الأشياء الساذجة، وقد يروق ذلك لكثير من الناس. لكن الأمر لم يكن على هذه الحال، ومن التفاهة قول ذلك.

رأى إسحق أنه على حق، وأنهما متلاصقان بهذه الطريقة على الشاطىء، كانا وجدانيين بريئين.

كان اليهودي يصغي إلى ما يقوله الزنجي الفرح والواسع الخيال، وعيناه تشعَّان، كما يصغي مغترب لأغنية من أغنيات بلاده.

هنريك ومورينا يتدحرجان على الرمال، ويعضّان بعضهما. مورينا... الفتاة الجميلة في شارع الـ"كينز ميستير".. يقبّل شفتيها، ويعتبرها زوجته في الألعاب التي تقوم بها الزمرة. كان بالإمكان أن يتوقف الأمر عند هذا الحدّ! ولكان جميلاً أن تجري الأمور هكذا. غير أنهما كانا يحبّان أن يتعانقا بحرارة وهنريك يبحث خلف ثوب مورينا عن نهديها اللذين لم يتكوّنا بعد.

قصة الزنجي العبد

- ١ -

- بفلسين يا عميمتي.

ملأت الزنجية الطاس حليباً ممزوجاً بنوع من الدقيق النشوي. كانت تشغل الجزء الأكبر من الباب بصفائح من الكيروزين مليئة بالحليب، وعصير الذرة المحلّى الممزوج بمسحوق القرفة، وبطبق مزيّن بالرسم يغطّيه منديل أبيض مخرَّم يخفي تحته فطائر محشوّة بالفاصوليا السوداء. بينما السلاطين المقليَّة تجاور إناء الفخار حيث الصلصة المفلفلة. تبقى الزنجية في ذلك المكان حتى الصباح الباكر، حين يكون الزنوج والخلاسيون المتأخرون قد رجعوا إلى منازلهم، ونامت المدينة، وأغلقت نوافذ الأبنية الكولونيالية، وسكتت أجراس الكنائس التي لا تحصى. كان رأسها المجعَّد الشعر قد ابيّضّ، وهي تذكر حكايات قديمة مثل الكنائس، وقصصاً عن العبودية، وعن "نعم سيدي"، و"نعم سيدتي"، وعن العبيد والعبدات الصغيرات. لذلك، يجلس الصبية الزنوج بالقرب منها، علماً أن ما كان يغريهم لم يكن ثدياها السوداوان البارزان وراء القميص المفكوك الأزرار، واللذان يتأرجحان كالقلاّدات، والتعويذات المتدلية من عنقها، بعد أن كانا فيما مضى جامدين منتصبين. يتحلّقون حول تنورتها الواسعة المصنوعة من القطن الهندي

ليستمعوا إلى أخبارها القديمة. ومثلهم كان عمّـال المرفأ وسائقو العربـات، والشغيلـة، وأحياناً بعض الطلاب الذين ما أن يتوقفـوا أيضـاً حتى ينصرفـوا بسـرعة لأن والديهـم أغنيـاء، ولأنهـم لا يريـدون أن يتذكـروا أن أجدادهـم كانوا عبيداً، وهم الآن يمتلكون عبيداً آخرين، وزنوجاً، وخلاسـيين، وبيضـاً يعملون في حقـول التبـغ والكاكـاو وتربيـة الماشية، أو تقطـير الكاشاسـا في الأنابيق.

- ٢ -

ينزل الشحّاذ الزقاق بخطى ثقيلة جارّاً رجله الضخمة الملفوفـة ببقيَّـة مـن ثوب. يتوكأ على عصا ابتاعها من سوق "أغـا ــ دي ــ مينينـوس"، وشـعره يتدلّى علـى وجهـه، شـعر رمـادي فـاهٍ، لا يعـرف أحـد أكـان ذلـك بفعـل الشيخوخة أم بسبب العذاب الذي يعانيه. كانت قطع النقود الـتي يجـود بهـا عليه المحسنون، تسقط في لحاء ثمرة مجوَّفة، يحمله بيده، بينما تظهـر مـن تحـت إبطه جريدة المساء المدعوكة. توقّف بالقرب من الزنجيَّة لأنه هـو أيضـاً كـان يقيم في الـ ٦٨، طلعة الـ"بيلورينيو"، كمستأجر بدون بدل مثل الجرذان. ينام تحت الدرج، ويلتفّ منذ سنتين، بغطاء لم يعد يقبل التسمية، ولم يكـن يـرى الماء إلاّ عندما يغطس في برك البول، نـاهيك عـن الثقـوب الـتي تركتهـا فيـه أنياب الجرذان.

القى الشحَّاذ تحية المساء على الزنجية، وانتقل يجرّ قدميه إلى تحـت قنديـل البيت المقابل، وراح يقرأ الجريدةن مهملاً الجزء المتعلق بالسياسة التي لا يهتم

بها، مركّزاً على بعض برقيات "الريو"، والأحداث المتفرقة.

بعد أن انتهى، نهض ورجع إلى الـ ٦٨ حيث كانت مجموعة من الزنوج والخلاسيين يثرثرون مع "الباهيانيّة" وهم يشربون "المينغو"(*)، ويتناولون الـ"الأكاراجيه"(**)، بقمصانهم الاحتفالية، والأزهار خلف آذانهم، وألحان القيثارة في مسامعهم.

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير، يا كاباسا.

جلس كاباسا ممدّداً ساقيه. كانت الرِجل الواقعة تحت الضوء تبدي قروحها، فيحكّها كاباسا خفيةً.

سأله خلاسي:

ـ أخبار كثيرة؟

ـ لا شيء تقريباً. إضراب مستخدمي شركة قطارات «الريو».

ـ هذا ما ينبغي عمله في باهيا...

ـ إذا كان بالإمكان... تحطيم سحنة هؤلاء الأميركيين، أبناء العاهرة...

التفت كاباسا نحو الزنجية:

ـ سامحي ابن القحباء... أيتها العمة.

(*) حليب ممزوج بدقيق نشوي.

(**) نوع من الفطائر المصنوعة من عجين الفاصوليا السوداء.

ضحكت الزنجية، بينما تابع كاباسا:

إنَّ إسبانيّي هذه المنطقة ليسوا رجالاً.

فيما مضى، كان جابياً في الترامواي، وجرح رجله ذات يوم بقطعة من الحديد بينما كان يقفز من القاطرة. وها هو بعد شهر عاجز عن العمل فصُرف. قد يكون تفشي الألم في الجرح مردّه عدم توفّر طبيب، أو ربّما سبب آخر، ممّا أجبره على التسوّل.

لعن بادىء الأمر شركة الترامواي، ثم عاد... واستسلم للأمر الواقع. في حديثه مع إسحق كان قد استأنف اعتراضه على شركة الترامواي (السيركولير).

ـ يجب أن تبحث الأمر مع إسحق.

ـ اليوم ألفاروليما يشتغل في المحترفات.

ـ ألفاروليما؟ من هو؟

ـ رفيق بكل معنى الكلمة. أعتقد أنه يسكن هنا.

ألقى الجنديان اللذان ينزلان الزقاق تحيّة المساء، وصعدا الدرج. كانا يقيمان في الطابق الأول. هنا توقّف الحديث. كذلك ألقى الزنوج التحيه وانصرفوا.

تناول الشحّاذ كأساً من "المنغوزا"، واشترى فطيرة من دقيق الفاصوليا الخالية من الفلفل كما يفعل كل ليلة.

- ٣ -

فرش الجريدة على الأرض ونام، دون أن يبالي بمستنقع البول الراكد بالقرب منه، فقد أَلفَه، ثم بدأ يصفّر بصوت منخفض، وبطريقة خاصة به. الجرذان تتراكض في عتمة الدرج، دون أن تفوته الضوضاء التي تثيرها. لم تمض سوى فترة وجيزة حتى سمع ضجّة مألوفة، فعلا صفيره حتى اقترب منه جرذ سمين ضخم.

- مساء الخير، يا بيليه(*).

مرَّر يده على ظهر الجرذ الذي كان مقشوراً، بالغ السمنة، وله شاربان كبيران كشاربي الهرّ.

قطَّعَ فطيرة دقيق الفاصوليا قطعاً صغيرة أكلها الجرذ بنهم. بعد ذلك، راح يداعب ظهر الحيوان حتى شعر أنه بدأ يتململ.

- إلى النوم يا بيليه.

بعد أن اختفى الجرذ في الدرج، التفَّ كاباسا بغطائه، وغفا دون أن يسمع خطى الرجال الذين يصعدون،والنساء اللواتي يدخلن.

(*) منتوف الشعر.

- ٤ -

انفرج وجه الزنجي هنريك عن ابتسامة عريضة، ونادى الصغيرة التي كانت تمرّ مسرعةً.

ـ أيها الملاك الذي أرسله لي السيّد «بونفيم».

ـ أمّك الملاك...

ـ التي صنعتك، أيها الجمال.

تناول الكأس من يدي العجوز السوداء، وبلَع جرعتين.

ـ هل لا يزال ساخناً يا بنيّ؟ هذه هي البقية الضئيلة.

ـ نعم، أيتها العمَّة، ضعي فيه أكثر.

أضاف عندما انتهى:

ـ هل تتذكرين تلك الحكايات التي كنت تعرفينها؟

ـ أيّ حكايات؟

ـ حكايات الاستعباد.

ـ ماذا يجري؟

ـ سوف تنسيها كلّها.

ـ متى؟

ـ يوم نصبح نحن الأسياد...

ـ أسياد ماذا؟

ـ كل شيء. باهيا... البرازيل...

ـ كيف ذلك يا بنيّ؟

ـ أسياد القطارات... المنازل... المواد الغذائية.

ـ متى سيكون ذلك؟

ـ عندما نقرّر ألاّ نبقى عبيد الأغنياء. عندما نتخلّص منهم.

ـ من ذا الذي سيحقق هذا السحر الذي بوسعه أن يجعل من الغنيّ فقيراً.

ـ الفقراء أنفسهم، أيتها العمّة.

ـ آه. فهمت! كاباسا، وهذا العجوز الغرينغو، يقضيان الحياة في التحدّث عن هذا. منذ أقلّ من ساعة، كانا يتحادثان هنا. لكن هذا لن يحصل يا بنيّ.

ـ لماذا؟

ـ الزنجي عبد. الزنجي لا يقاتل الأبيض. الأبيض هو السيّد. أذكر أن زنجياً أراد فيما مضى أن يقاتل رجلاً أبيض. كان ذلك منذ زمن بعيد.

ـ تحرّر الزنجي، يا عمتي.

ـ أعرف. هي الأميرة إيزابيل في عهد الأمبراطور. لكن الزنجي لا يزال يحترم الأبيض.

ـ أمّا اليوم فنحن نحرّر الزنوج بكل معنى الكلمة، أيتها العجوز.

سُمع عند مدخل الزقاق زنجي سكران ينشد أغنية العبد المأساوية:

"كزيكو زيك"، هو غابة شوك،

"أومبورانا"، هو غابة عسل،

ربطة عنق الثور، هي النير،

ربطة عنق الزنجي، هي الرسن.

ابتسمت الزنجيَّة:

ـ أرأيت؟

ـ نعم. سنحرّر الزنجي.

كانت العجوز تتناول الطبق، فساعدها هنريك بأن وضع الصفائح الفارغة فوقه. سألته:

ـ هل تعرف ما هو أحسن شيء في العالم؟

ـ ماذا هو؟

ـ إحزر.

ـ المرأة...

ـ لا.

ـ الكاشاسا.

ـ لا.

ـ الفاصوليا مع لحم الخنزير؟

ـ ألا تعرف ما هو؟ إنه الحصان. فلو لم يكن موجوداً لركب الأبيض الزنجي...

متحف

- ١ -

عندما تمادت المسلولة في سعالـها تحت التخشيبية، فتحت سيباستيانا فمها بتشنّج، وصعَّدت منه صرخات مرعبة.

ـ ما بالك يا سيباستيانا!

سألـها صاحب الأسنان الناتئة وهو عائد إلى البيت عاري الصـدر مبلّـلاً بالعرق.

ولّما كانت الفتاة خرساء طرشاء، رسم لـها في الفضاء علامـة استفهام، أجابت عليها بإيماءة، مشيرةً إلى الغرفة الموجودة تحت الـدرج، واضعـةً يدهـا اليمنى على صدرها، باعثة مـن فمهـا سلسـلة مـن الـهمهمات. ثـم أتبعتهـا بشهقات يقشعر لـها البدن لفرط ما تذكر بغرغرة إنسان يغـرق، أو بشـهيق طفل يخنقه غول. بدت وكأنها تبكي. غير أن صاحب الأسنان الناتئة عـرف أنهـا تضحـك، وأن مـرض المسلولة يبعـث في نفسـها الرضـى. سألـها، بالإشـارة، إن لم تكـن تشـعر بالشـفقة؛ فهـزّت رأسـها لتقـول لا. لا بعنف،وفتحت ذراعيها، كما لو كـانت تريـد أن تضـمّ المـنزل بأكملـه، ثـم وضعـت يدهـا علـى صدرهـا، وقلّـدت سـعلة المسلولة وابتسـمت مفهمـةً

صاحب الأسنان الناتئة أن فرحها سيكون أكبر إذا أصبح كل المنزل مسلولاً.

ابتسم صاحب الأسنان الناتئة، ونَقَف خدَّها بإصبعه. حاولت أن تصدر أصواتاً تعبّر عن فرحها، مرسلةً من فمها شهقات غريق، مشيرةً بيدها إلى أنها لا تريد أن يصبح هو مسلولاً.

كانت الفتاة في هذه اللحظة، صاحبة الفستان الأزرق تنزل من الطبقة الثالثة. فكّر صاحب الأسنان الناتئة أن الفتاة، وإن هي ظريفة، لا تملك غير هذا الفستان. وخُيِّل إليه وهو ينظر في عينيها، أنها تبكي. اتكأ على مسند الدرابزون ليتيح لها المرور، في حين استندت الخرساء الطرشاء إلى الحائط. بعدما مرَّت صاحبة الفستان الأزرق، استجمعت سيباستيانا جهدها، وضحكت طويلاً، مرسلةً هذا النوع الفظيع من الضحك الذي يخرج من فم الذين فقدوا الأمل. تابعت الفتاة ذات الفستان الأزرق سيرها دون أن تلتفت إلى الوراء. عندها، ضغط صاحب الأسنان الناتئة على ذراع الخرساء الطرشاء حتى أسال دموعها من عينيها الشّريرتين، فهربت مادّة لسانها بطريقة شائنة.

إنها تشتم والدتي. فكّر صاحب الأسنان الناتئة.

وللحال تخطّى الدرجتين اللتين تفصلانه عنها، بقفزة واحدة، وصرخ في أذنها سائلاً. فهمت، وأكدت ذلك بوجه مشرق، فما كان من صاحب الأسنان الناتئة إلاّ أن رفع يده، ثم أخفضها بعد أن نظر إلى الخرساء الطرشاء. فهي زنجية صغيرة نحيلة، مبيضة الشعر، ذات عينين شيطانيتين شرّيرتين، عينين تعبّران أكثر ممّا بإمكان جميع ألسنة البناية أن تعبّر عنه.

سعلت المسلولة في تخشيبتها مجدداً سعلة نزاع مجنونة، سعلة هزَّت البيت كلّه، وحرَّكت أعصاب الرجل.

- إني أتصرَّف كامرأة... قال ذلك مبتسماً.

لكنه ارتعش مجدداً، وتجلَّد العرق الذي كان يجري على ظهره. أمّا الخرساء الطرشاء فتظاهرت بالضحك مرسلةً أصواتاً رهيبة، نباحاً بربرياً مرعباً. عندئذٍ، اندفع صاحب الأسنان الناتئة في الدرج وهو يرتعش كما يرتجف مريض أصابته الحمَّى.

- ٢ -

كانت الماكينة قد أطاحت بذراعيه. كل مرة بواحدة منهما. عندما فَقَد ذراعه الأولى لسهوٍ منه. أمّن له صاحب العمل، عطفاً منه عليه، عملاً آخر على ماكينة أخرى لا يقلّ خطرها عن الأولى، وبمرتّب دون المرتّب الأول. وها هو يقع من جديد في نوع من الشرود الذهني فتصبح الذراع الثانية طعماً للآلة. أشفق عليه ربّ العمل، كما قال، إلاّ أنه لم يكلّفه بأي عمل آخر، لأنه كان يضنّ أكثر بماله الذي كلّفه جهداً كبيراً لتحصيله. وقد برَّر هذا التصرّف المجحف، أمام ضميره المسيحي، بأن الرجل كان مهملاً، فأصبح على ما هو عليه، لأنه أراد ذلك. قبِل ضميره هذا العذر، وبقيا يتعايشان بأمان. والأسوأ، هو أن العمال رفضوا ذلك فحاولوا القيام بإضراب كانت نتيجته أن أوقف تسعة وتعرَّضوا للضرب. خاف ربّ العمل الذي ما أن استأنف العمّال عملهم حتى اعتراه عارض من الكرم، وأعلن أنه

سيمنح المشوَّه مئتيّ ألف ريس.

كان شكل المشوّه يبعث على الخوف. فهو أحمر اللون، أصلع الرأس، مجدوع الذراعين. في رأي كاباسا، أن بإمكان أرثور أن يؤمِّن لنفسه دخلاً لا بأس به إذا تعاطى التسول. غير أن كبرياء أرثور حال دون ذلك، خاصة وأن بوسعه أن ينتصر على الجوع بفضل غيرة رفاقه في العمل الذين يدعونه لتناول الطعام معهم. استمرَّ على هذه الحالة مدة طويلة إلى أن انتهى به الأمر إلى تأمين عمل له لدى بائع متجوّل، يبيع أشياء زهيدة الربح. أشفق عليه بسبب مظهره فدعاه إلى الإقامة في غرفته الكائنة في الـ٦٨ التي كانت تقاسمهما إياها أفعى مسالمة تنصرف إلى الرقص، وافتراس الجرذان. أرثور، ينام بأكثر ما يمكن من الراحة، ممدّداً في صندوق تغطيه شعريَّة مشبكة القضبان، في حين أن البائع المتجول ينصب مصيدة الفئران على الدرج ليؤمن طعام الأفعى. كان أرثور سكوتاً، ذليلاً، حاقداً على الذين يملكون سيارات وعبيداً. يقضي معظم أوقاته في الإصغاء إلى أقوال اليهودي شأن ما كان يفعل عندما كان يتحدَّث الإسباني الفوضوي، مع فارق أن أحاديث الإسباني لم تكن ترضيه. أضف إلى ذلك أنه يكره المسحوق الأبيض، والدهان الأحمر اللذين يخضبان وجهه عندما يتوجّه إلى العمل. غير أن ما يكنّه من صداقة للبائع المتجول، وهو فتى في الثانية والعشرين من العمر، شاحب اللون، يقاسمه ما يربحه من مالٍ، كما كان يساعد شقيقاته الخائطات، كان يجعله يقبل بهذا التزيّف.

عندما يمرّ أرثور على الطرقات، بوجهه المخضّب، وذراعيه المبتورتين، والأفعى متدلية من عنقه كعقد غريب. كان الأولاد يصرخون:

ـ شيكو!

ـ أكتع.

كان النجاح مضموناً. لأن حلقة من العاطلين عن العمل تلتف حولهما، تصفّق للحيّة، وتسخر من الأكتع، بينما يشتري البعض الآخر صابونة للجرح، أو صابونة لغسيل الصحون.

في المساء، عندما يعود أرثور إلى البيت، بقامته الطويلة، ورأسه الأصلع، وهو أبيض أكتع، يبدو للعاشقين الغارقين في عتمة الدرج وكأنه شبح هارب من نار الجحيم، فيعتريهم الخوف.

إذا كان الأولاد المتجمّعون في الـ"مونتي دي بيليرينيو"، والذين خاطروا حتى الوصول إلى "رانب دي سافوتييه"، وإلى "التريرو"، يصرخون لدى رؤيتهم أرثور بذراعيه المبتورتين، فإن صراخهم يتحوّل إلى ولولةٍ عندما يلمحون على قمة التلة ذلك الرجل بجسمه النحيل، وعينيه الغائرتين، ورأسه الصغير،، وبنطاله الخشن، وسترته الكاكيَّة، وحذائه المعقوف، وقميصه القذر الذي لم يتبق منه سوى ما يستر الصدر، وهو يجهد كي يقيه الثقوب، وطوقه القاسي الذي تتدلّى منه ربطة عنق قرمزيَّة، وبقبّعته الزرقاء الغامقة اللون، ومظلته المكسورة المتأرجحة في ذراعه والتي هي سلاحه الوحيد ضدَّ الصغار.

ما أن يشاهدونه حتى يتراكضون نحوه وهم يصرخون:

ـ حطّة ـ نطّة، حطّة ـ نطّة!

فيخترق صراخهم المنازل، وتمتلىء النوافذ بالفتيات كما في أيام الزيّاحات. فتيات يضحكن، ويتدافعن. ورجال يضحكون أيضاً، وجنود

يتوقفون ليتفرَّجوا. جمهرة من الأولاد البيض والسود والخلاسيين والعرب والإسبان، تتحلّق حول الرجل الذي يلوّح بمظلّته ليفرقهم.

ـ حطّة ـ نطّة!

وبالرغم من المظلّة كان الحلقة تضيق. أولاد ينزلون ويطلعون، متوافدين جماعات متدفّقين في كل الأزقّة ومن جميع الأبواب وهم يصرخون:

ـ حطّة ـ نطّة!

وبينما المظلة تدور، كان يصرخ غاضباً:

ـ إذهبوا، يا أبناء العاهرات، يا أوغاد، يا سفَلَة، يا أوباش، إذهبوا وشأنكم.

أما الأولاد فيضيّقون الحلقة:

ـ حطّة ـ نطّة.

ـ لي اسم أيها السفهاء. أدعى "ريكاردو بيتانكور فيانا". أمّكم حطّة ـ نطة.

غير أن جواب الأولاد كان:

ـ حطّة ـ نطّة.

الفتيات المزدحمات في النوافذ، الرجال، الجنود المتوقفون، كانوا كلهم يضحكون. وتدوم اللعبة حتى تأخذ الشجاعة مأخذها من أرثور، فيستل مظلته ويشق طريقه عبر الأولاد، ويندفع في الزقاق ليزجّ بجمسه الهزيل في

درج الـ٦٨، مشبعاً بصراخ الأولاد:

- حطّة - نطّة.

وتتساقط الحجارة على ظهره وكتفيه:

- إذهبوا وانكحوا أمهاتكم!

يسمع الصرخات الأولى، طلاب الطب في "تريبرو". وتجنّباً للمشهد اليومي، يتحاشى الاقتراب من المكان، ويدخل الشارع. أحياناً يصادف وجود الأولاد هناك يركضون في أسفل المنحدر، فيسير فترة من الوقت بهدوء. ولكي يأمن شرّهم، يجتاز طلعة "تابوياو" مسرعاً ليعاود سيره. غير أنه في بعض الأيام، كان يوفّق في الوصول إلى باب الـ٦٨، دون أن يراه أحد.

لكن المألوف هو أنه ما كان يكاد يطأ الشارع حتى يطلق أحد الصغار إشارة الإنذار:

- حطّة - نطّة.

يرى عندئذٍ الأولاد، وهو في أعلى الشارع يصعدون نحوه. يدهشه. في بادىء الأمر، أن تضم الضواحي مثل هذا العدد من الأولاد: مئة، ربّما، مئتان: يصعدون جميعهم باتجاهه. فيفكّر بالانكفاء. لكن طلاب الطبّ كانوا يحرّضون الأولاد. ويسدّون الشارع فينفجر غيظاً ملوّحاً بمظلّته، ولكان سعيداً جداً لو أنه قتل ولداً. يؤكد ذلك أنه عندما كانت الملاريا تفتك صدفةً بواحد منهم، تغمر الغبطة قلبه في سكون غرفته.

يكره بنوع خاص واحداً منهم هو ابن رجل عربي ملقّب بـ "زبيدو"،

رماه، بعد ظهر أحد الأيام، بحجر أصاب رأسه. رآه حطّة ـ نطّة صاعداً يقود زمرة الأولاد. وفي الوقت الذي كان يلوّح فيه بالمظلّة، فكّر بانتقامات مريعة: رؤيته يموت حرقاً تلسع ألسنة اللهب جثته البضّة، والدهن يسيل في أجيج النار. كان يحاول أن ينال زبيدو بضربة من مظلّته وهو يصيح:

ـ غرينغو، يا ابن العاهرة!

بقدر ما تضيق الحلقة من حوله بقدر ما يزداد هياجه، فتزداد بذلك شهوته للقتل وحاجته للبكاء. ينظر إلى العسكريين اللامبالين، ويتحرَّق حقداً عليهم.

ـ يا ابن العاهرة، يا ابن القحباء! لا شرطة في هذا البلد!

ويصيح فجأة، كالمجنون يخترق جمهور الأولاد مندفعاً وملوّحاً بمظلّته.

ـ حطّة ـ نطّة.

ـ إذهب وانكح العاهرة التي انجبتك.

عندما يصل إلى الغرفة، يضع المظلّة في زاوية، ويعلّق قبّعته في مسمار، ويخلع سترته ويطويها بعناية على السرير، ويتوجه لتفقّد حقيبته الجلديّة القديمة، كنزه وموضوع وَلَعِه، هذه الحقيبة التي يتفقّدها عشرين مرَّة في اليوم مفرغاً منها الأشياء القليلة التي يمتلكها، مبدلاً موضعها دون ملل، مغتبطاً، ناسياً الأولاد والكنية.

جنس

- ١ -

الرجال الذين يذرفون العرق طيلة النهار في عناء الأرصفة، ونقل البضائع، والقفز على سلالم القطارات، لجمع النقود يفتقرون أحياناً إلى المال ليقتاتوا. يفتقرون أكثر إلى هذا المال ليدفعوا للنساء. صحيح أن تعرفتهن لم تكن مرتفعة الثمن في "مونتي دي تابوياو" وفي "بيليرينيو"، وأنه بخمسة آلاف ريس، بالإمكان مضاجعة المرأة الأكثر أرستقراطية، وبألف وخمسمئة ريس مضاجعة الزنجيات الصغيرات القذرات، والبولونيات السبعينيات، ولا يخشون الأمراض فالزنجي هنريك يقول مثلاً:

ـ لكي يكون الرجل رجلاً، عليه أن يشرب الكاشاسا، وينام في الأصفاد، ويصاب بالتعقيبة.

وبالفعل، معظمهم مصاب بالتعقيبة المزمنة التي ألفوها، كما ألفوا جرذان الدرج، ورائحة العرق التي تملأ البناية. لكن عندما يتضاءل العمل ويقلّ المال، يخفّ النزول إلى "مونتي دي تابوياو". ذلك النزول الصاخب الذي كثيراً ما ينتهي إمّا بالشجار والسجن، إما بالسكر على أنغام القيتارة، وألحان الأغنيات. بعد ذلك، يرجعون إلى الاستلقاء على ألواح الأسرَّة، وعلى الحُصر والفرش، ويشعرون بالعرق يسيل وبحرارة الليل الفاترة. أما النوم

فيهجر عيونهم، ولا يأوي إليها إلاّ حاملاً أحلام نساء بيضاوات اللون، ولذائذ جنسية تبقي الرجال في حالة يقظة مثقلي الرأس، مشتتي الخيال، بعيدين عن الواقع.

يخرجون في تلك الليالي باحثين عن النساء، بينما بائعات اللذَة يفتّشن بعد العاشرة مساءً عن الرجال الذين يدفعون لهنّ ثمن ترويقة الغد.

يعجّ الـ٦٨ ببنات الهوى، وبالرجال الباحثين عن النساء. يعرف الرجال أن ليس بإمكان المرأة أن تضاجع ذكراً مجاناً، وأن ليس باستطاعتهم أن يدفعوا بدل فطور النساء. من هنا ينصرفون إلى غزو الطاهيات والخادمات، وهم على استعداد للاقتتال مع العسكريين " الدونجوانيين". عندما يُوفّقون بعد طول عناء، بالوقوع على فتاة، ينزلون وإياها إلى رمال المرفأ، لأن أمثال هؤلاء الفتيات يرفضن ارتياد غرف الـ٦٨ حفاظاً على سمعتهن.

في بعض الأحيان، كان الرجال العائدون خائبين، يلتقون على الدرج نساءَ لم يوفّقن أيضاً في مساعيهن، فيتبادلون التمنيات بالليلة السعيدة. أمّا إذا دعا أحد الملهوفين امرأة للمضاجعة، فكانت المدعوَّة، وقد توجّست ضرباً من القرصنة، تعرف كيف ترفض الدعوى دون أن تتوقف عن الابتسام، ممّا يضاعف هياج الرجال، فيلقون بعض الأقوال الفكاهية للمتسوّل النائم:

ـ أنت من هو في أحسن حال، يا كاباسا. لأنك تتدبَّر أمرك مع هذا الجرذ السمين...

- ٢ -

كان الألماني يُدعى فرانز، ويعمل قندلفتاً في أحد الأديرة. أمّا الزنجي الملقّب بـ"مدوينو" البشع فيبيع الفاكهة أثناء النهار.

يقيم فرانز في الطبقة الثالثة، ومدوينو في المخيَّم الخلفي.

عندما يشتد بهم الجوع للمرأة، وتصبح الطاهيات نادرات الوجود، يقصد الرجال فرانز ومدوينو. بعضهم ضدَّ خاطره، والبعض الآخر، قائلين: علينا متأخّرات.

ليس فرانز فريسة سهلة بالرغم من أنه يكسب مالاً وفيراً من تعليم العزف على البيانو لفتيات الجوار الصغيرات. من هنا كانت تتوجَّب استمالته، بل قل مغازلته أياماً وليالي، للتمكن من الدخول إلى غرفته الخاصة التي تحتوي ثماراً، وبطاقات بريديَّة، وصور قديسين، شأن غرف بنات الهوى اللواتي كان يختلف عنهن، إنه هو الذي يدفع للرجال الذين يعاشرونه، وإنه بالرغم من حبّه لإقامة العلاقات الوديّة، لا يهب نفسه إلاّ لشخص واحد. يبكي عندما يتخلّى عنه الناس. وذلك لا يروق للرجال. فمصادقته لرجل واحد لا توافقهم. أمَّا أن يطرقوا بابه صدفةً في الأوقات التي تلحّ عليهم فيها غريزة الجماع، وهذا الشيء يحصل. أمّا الارتباط به فلا يحصل إلاّ عندما يكونون عاطلين عن العمل، ويتهدّدهم الجوع، وتتحدَّث المالكة عن طردهم من الغرفة. من هنا، يبدأون بملاحقته، ومغازلته، كما لو

أنه فتاة ألمانية شقراء بجدولة الشعر مثل اللواتي يشاهدونهن في السينما في مثل تلك الظروف الاستثنائية.

أما مدوينو فهو أكثر ليبرالية. انطلاقاً من ساعة معيَّنة تصبح غرفته مفتوحة لجميع من يعانون من فقدان المال، والنساء.

بالرغم من رداءته وقبحه ـ شفاه غليظة وأنف أفطس ـ كان البعض ينصح به.

زد على ذلك أنه يقدِّم للمعجبين به الفاصوليا بلحم الخنزير والـ"غنول"(*) ويغني السامبا، وأناشيد يألفها ذوق العصر. كان فرانز يثير اشمئزازه، "هذا الألماني القذر الذي يشبه الهرَّة".

لهذه الأسباب، على الأرجح، كان الجالسون عند باب الـ٦٨ يلزمون الصمت، ويمتنعون عن المزاح عندما يمرّ مدوينو بطبق الفاكهة (كان زبائنه كيِّسون ومنتظمون). أما عندما يمرّ الألماني بلباسه الكزميري الأزرق، وبزّته العتيقة والنظيفة، يصفّرون ويصرخون:

ـ لوطي، لوطي!

ـ ٣ ـ

في الشقة ـ٥٥ـ يقيم لوطي آخر هو "زماشا دينيو" الذي يغسل البذلات البيضاء المصنوعة من الكتّان، إلاَّ أنه كان يملك البناء الآخر. فيتجنّب

(*) غنول: مشروب كحولي يشبه العراق.

رجال الـ٦٨ إقامة علاقات معه.

اتكأ " كـوزم" على الـدرج بعدمـا رجـع ذات مسـاء مـن جولتـه دون جدوى. كان ذلك بعد منتصف الليل في الساعة التي كانت فيها الزنجية الـتي تبيع فطائر الفاصوليا تستعدّ للخروج. تحدَّث إليها كوزم قليلاً، وهـو مسـتند إلى الدرابزون لعدم قدرته على الصعود.

كانت في هذه الأثناء، تصعد امرأة متمهلة، لأنها هي أيضاً لم تجد رجلاً، ولم يعد من همّ لديها في تلـك اللحظـة، إلاّ أن تصـل إلى السـرير، وترتـاح؛ تستدين في الغد لتؤمن فطورها، خمسة آلاف ريس مـن الفرنسيَّة المقيمـة في الطبقة الثانية، والتي حظيت تلك الليلة بكولونيل غني.

ألقى كوزم عليها التحيّة:

ـ مساء الخير...

ردَّت التحية وتابعت سيرها. صعد وراءها. لا يريان بعضهما في العتمـة، لكن المرأة سمعت خطى الرجل.

سأضاجعك هذه الليلة.

كانت تعرف أن ليس لديه المال.

ـ لا يا بنّي؛ إنني تعبة.

ـ لكنك لم تجدي رجلاً..

ـ إذاً؟

ـ أدفع...

ضحكت دون لؤم.

ـ من أي مال؟ أنت خالي الجيب. دون عمل.

ـ أصمتي. قلت لك إنني سأدفع.

ـ دعني..

خطر له بعد أن يبدأ معها أن يقبّلها ويشبع شهوته، فهو قوي وقد لا تقاوم، رفع ذراعه ثم أخفضها فوراً.

ـ نعم. إنصرفي. كان في نيتي أن أبتزك.

أعادت المرأة الموسى إلى غمده، وسألت بصوت حزين:

ـ هل مضى عليك وقت طويل دون أن تضاجع امرأة؟

ـ شهران.

ـ أنت بحاجةٍ، أليس كذلك؟

ـ بعض الشيء.

أخفض رأسه متابعاً:

ـ قلت انصرفي... إنك تضاعفين من رغبتي... و...

ـ بإمكانك أن تحصل عليَّ بالقوة، أليس كذلك؟

ـ أتسخرين منّي... ليلة سعيدة...

استوقفته، ولامست وجهه بيدها.

ـ إسمع أيها الصغير. سأضاجعك، لكن اليوم فقط، وهنا على الدرج.

فإذا ذهبنا إلى الغرفة سيرغب الجميع في الذهاب إليها دون مقابل. هم يعرفون أن ليس لديك المال.

رفعت تنّورتها، واستندت إلى المرتكن.

- ٥ -

استلقى توفيق على السرير. فكّر بـ"أنيتا" التي انصرفت وتركته دون امرأة. سنواته التسع عشرة الفاسقة بحاجةٍ ملحّةٍ إلى أنثى. زاد حرُّ الليل من هياجه فمنعه عن النوم. نهض وبلّل رأسه فوق مغسلة صحون حجرة الدرج، ثم بصق وعاد. لاحظ فخذي أمّه العاريين. أرعبه المشهد، بادىء الأمر، غير أنه لم يلبث أن طرده من مخيَّلته، وتمدّد بجانب العجوز مستنداً إلى الفخذين العاريين كعادته كل يوم. لكنه لم يغفُ تماماً، تلك الليلة، فراح يحتكّ بأمه التي تغطّ في نومها.

- ٦ -

يصبح الرجال مجانين تقريباً عندما يفتقدون المرأة، فيمسكون بزنجيَّات قاصرات، ويقضون حاجتهم الشبقة. وذلك سبب لزجّ الكثيرين منهم في السجن.

أمَّا الزنوج فهم أكثر نعومة وشاعريَّة. كانت للزنجي هنريك طريقته الخاصة في اصطياد الخلاسيّات.

كانت الساعة قد دقّت الحادية عشرة في ظلمة ساحة الكاتدرائيـة عندمـا التقى الخادمة المغناج؟

- إلى أين يا حلوتي؟

تابعت سيرها بكبرياء و لم تجب. تبعهـا الزنجـي مترنّحـاً مرسـلاً كلمـات ساذجة، بينما بقيت المرأة غير مبالية. اقترب منها وأنّبها:

- كفى عجرفة!... أمي، كانت متعجرفة مثلك وتزوّجها والدي.

ابتسمت الخلاسيّة. فاستطرد. وتحدّثـا عـن شؤون تافهـة. وعندمـا بلـغ زقاق "لا مونتانييه"، قال:

- هل سننام دون أن نحلم؟

عندها، انحدرا إلى رمال أرصفة المرفأ.

اللهو

- ١ -

أبواب صالات السينما مقفلة في وجوههم مثلها مثل القيام بنزهات مشبعة بالمشروبات الروحية في السيارات. جلّ ما كان في متناولهم "الأولمبيا" عند منعطف "السافوتييه"، حيث تختلط السينما الناطقة بأفلام قديمة، ممّا يثير سخريتهم. مثل الأولاد، أولئك الكادحون يهوون أفلام "الكاوبوي" التي يتغلّب فيها الشاب الصغير على القراصنة، ليغنم بالصغيرة وبذهب الغرب الأميركي، يتتبّعون الأفلام ذات الأحداث المثيرة معلّقين على المشاهد غير المتوقّعة، مناقشين بعض المقاطع.

تتقبّل مخيّلة العمال، خاصة الزنوج منهم، المغامرات المجنونة، وحبكة الأفلام ذات المشاهد الخارقة، دون احتجاج وتحليل.

في حين يرتاب الأولاد البيض من هذه الاستعراضات المفرطة للقوّة ومن هذه الصدف اللامعقولة. يضحك الراشدون من الزنوج، إنهم ساذجون. إلى حد أنه إذا اعرب أحد عن شكّه بصوت عال، يناقشون مؤكدين بأن ذلك ممكن، داعمين رأيهم ببعض القصص.

- ألا تعرف جوستينو الزنجي الذي كان يصرع ثوراً بلكمة واحدة؟ لقد

أوقف سيَّارة بساقه.

ـ و لم تنكسر الساق؟

ـ لا... لم تنكسر... التوَتْ قليلاً... أما السيارة فبقيت متوقّفة كبهيمةٍ شاخصة إليه.

الزنجي لا يتوقّف. والحلقة تصغي. نصف منفعلين، نصف مبتسمين، حتى إذا تعب الراوي أو توقّف عن الكلام، استلم الحديث زنجيّ آخر من الذين ألـهبت القصة مخيَّلتهم، و لم يسبق له أن سمع بـ"جوستينو" قبل تلك العشيّة.

ـ وقصة السيرك، ألا تعرفونها؟ وقعت بعد أن لوى ساقه بحادث السيارة. سيرك ضخم فعلاً أتى إلى "باربااليو"، سيرك ذو ثلاثة صواري، يضمّ بهلواناً، وضواري هائلة، بينها خمسة أسُود، وأفعى عملاقة، وتمساح، ونمور، وحيوانات. كنت لا أزال طفلاً، وأذكر أنني كنت واقفاً وراء البهلوان لأرى المشهد.

ويستعيد المتحدّث أنفاسه ثم ينظر إلى المستمعين مبتسماً:

يوم الحفلة الأولى، كان السيرك مضاءً بأكمله، والمدرج يعجّ بالمشاهدين، والموسيقى تصدح، والناس يصرخون، وأناس من كبار القوم يشغلون الشرفات. وبعد أن قام البهلوانيون والفتاة التي تمشي على الشريط الحديدي، والصيني الذي يبتلع النار، باستعراضهم، أُدخل إلى المسرح قفص ضخم مليء بجميع أنواع الضواري، تبعه مروّض شاب طويل القامة، أحمر اللون، يشبه «شيكو» وراح يخرج بعض الحيوانات ويلاعبها.

عند انتهاء المشهد اقتيد الجميع إلى القفص؛ عندئذٍ أفلتوا من القفص أسداً كالفيل ضخامةً، وأنيابه كأصابع اليد. وقد أصيبت إحدى السيدات بشبه إغماء عندما زأر. لم يدخل المروّض إلى القفص هذه المرة، بل اكتفى بأن ألقى كلمة قال فيها، إن هذا الأسد هو ملك غابات أفريقيا، قُبض عليه منذ فترة وجيزة، وقد افترس مروّضاً تجرّأ على دخول القفص. ولم يتمكن أحد، حتى هذه الساعة، من ترويضه. فمن أراد من الحاضرين أن يجازف ويدخل القفص، يمنحه صاحب السيرك جائزة مالية بقيمة ألفي "كروزيرو". كان الأسد، من جهته يضحك. حينئذٍ...

كان المستمعون مأخوذين كما في فيلم مثير، في حين كان الراوي يتوقّف ليستمتع بوقع حديثه.

ـ حينئذٍ صَمَت جمهور المشاهدين بينما استمرَّ الأسد يضحك، والمروّض يرتجف. هنا خرج "جوستينو" الذي كان في الرواق الأعلى من القاعة معلناً أنه يقبل التحدّي. كنت بالقرب منه. أوقفه المشاهدون. حاولوا أن يمنعوه، فما كان منه إلاّ أن دفعهم طارحاً أربعة رجال على الأرض، وقفز إلى وسط السيرك. وفتح باب الحديد، ودخل إلى القفص.

ـ بدون سلاح؟

ـ بدون سلاح. كان رجلاً ولا كل الرجال...

فما أن انقض الأسد عليه حتى أمسك به من عنقه، وأخذ يضغط ويضغط عليه حتى انطرح الأسد أرضاً مدلياً بلسانه. وعندما نهض الأسد راح يلحس قدمي "جوستينو".

ـ والجائزة.

ـ آه، الجائزة!...

وتـأتي قصـة ثانيـة، لتتبعهـا ثالثـة، وهلـمّ جـراً... عنـد انفـراط الحلقـة، ينصرف الجميع مقتنعين بحقيقة «التباهيات» بمن فيهم الرواة.

ـ ٢ ـ

يوم الثلاثاء، تسرع النســاء إلى العمـل، وتنشـدن فرحـات كمـا في أيـام الأعياد. ذاك أن الثلاثاء بالنسبة لـهنّ هـو يـوم عيـد فعلـي. فالأولمبيـا تحيـي أمسية راقية مجاناً لجميع الفتيات وفـق برنـامج مرتجـل، علـى الأرجـح، لكنـه مشبع بالمشاهد. خليـط مـن الأفـلام تجمـع مختلـف الأنـواع: حاليـات يعـود تاريخها إلى ثلاث سنوات، وهزليات قديمة تملكها صالة السينما وتعرضهـا في هذا اليوم. كانت النساء تضحك ناسيةً أن الـهزليَّة قد أضحكتها في الأسبوع الفائت، وأفلام «كاوبوي»، وتمثيليات أميركية مثيرة، ومشاهد من روايـات متسلسلة.

لم يكن لـهنّ مـن سـلوى أخـرى، باستثناء الزيَّاحـات، فالثلاثـاء ينهـين عملهـن بـاكراً لأن الحفلـة تبـدأ عنـد السـاعة السادسـة، ولأنهـنّ يرغـبن ألاّ يفوتهنَّ شيء ممَّا يُعرض. يســرعن إلى السـينما مالئـات الشـوارع، مـثرثرات ضاحكات، مرتديات الملابس الأكثر تنوّعاً.

يصطحب البعض منهنَّ مجموعات من الأولاد الذين يركضون مطـاردين بعضهم بعضاً في الأزقة، غير مبالين بصياح الأمهات، وسُباب الآبـاء. وعنـد

مدخل السينما تضحك النساء من تدافع الداخلين إلى القاعة، بينما الصغيرات تحذن عشاقاً.

لو كان الأمر يتعلّق بغيرهنَّ من النساء لكانت تلك النسوة شعرت بالبقّ، والبراغيث، والحرارة، والعرق، وعفونة السينما. أمَّا هنَّ، فلا، لأن الـ٦٨ تحتوي على كل ذلك، وقد اعتدن عليه.

- ٣ -

في اليوم التالي، يستيقظن في الخامسة صباحاً كالعادة؛ وبينما هنَّ يعملن على تنظيف الغسيل، ورتقه، وكيّ القمصان، يتذكرن أفلام العشيَّة، ويستمعن إلى التعليق عليها، في حين تحلم الشابات بينهنَّ، بشيء من المرارة، بأزواج موسرين، لفرط الكره للحياة اليوميَّة: عمل متواصل، وقليل من الطعام.

تسود، في الخارج، حياة مختلفة. حياة السيارات الفخمة، والأثواب الجميلة. حياة لم تكن تعرفنها إلاّ من خلال السينما. من هنا، لا يحسدن رفيقات لهنّ يتزوجن من شبَّان أغنياء، لمعرفتهن أن سعادتهنَّ لن تدوم طويلاً، وسترجعن عمَّا قريب، وقد نسينَ كيف يُنظّف الغسيل، فيضطررن للبحث عن الرجال بعد العاشرة ليلاً وإلى شرب "الكاشاسا" حتى يأتي الإسعاف وينقلهن.

- ٤ -

من وسائل اللهو الأخرى المألوفة في البناية والشارع ـ الإسعاف ـ الذي كان يروع النساء. فعندما كانت سياراته تنزل إلى الشارع، فما ذلك إلاّ لنقل إحداهنَّ، التي قليلاً ما كان يحالفها الحظّ بالعودة. إلاّ أنه عند سماعهنّ الصفّارة، يسرعن إلى النوافذ متخليّات، لفترة، عن مشاغلهن، إذا توقّفت سيارة الإسعاف أمام أحد الأبواب، ماسحات أيديهنَّ بفساتينهنّ، ويحيطن بالسيارة متسائلات معلّقات:

ـ من المطلوب؟

ـ مومس.

ـ ما سبب وفاتها؟

ـ لم تمت بعد. هي في حالة سيّئة.

ـ ما السبب؟

ـ مرض الحياة. يقال إنه القرحة.

تتدخّل برتغالية سمينة.

ـ هؤلاء البشر، ينتهون دائماً هكذا.

ـ إصمتي، أيتها القردة! كانت تكسبُ قوتها.

ـ من حقيّ أن أقول ما يحلو لي.

ـ كأنك لم تكوني من اللواتي لم يمتطيهنّ أحد أبداً؟

ـ مطيَّة... مطيَّة... وأمك؟

تضيف امرأة أخرى.

ـ لا يخرج مرضاي من البيت. إذا حُكم عليهم بالموت، ففي كنف العائلة وليس مع الأغراب.

ـ أحسنت... غير أن الأدوية لا تتوفّر في كثير من الأحيان. هناك، يقدّمونها هم.

ـ لا شيء. إسألي "ريموندا" أين هي؟

كانوا يبحثون عن الخلاسيَّة الصغيرة التي أوضحت:

ـ بقيت هناك عشرين يوماً. وإن لم أمت فمن باب المعجزة... الجوع متوفّر طبعاً! أمَّا الأدوية؟ فلا شيء سوى الممرضين الذين يرغبون أن يجسوا جلدك، وأنت لم تستردي عافيتك بعد.

كان المريضة تمرّ على المحمل.

ـ يقال إنها مصابة بالقرحة، هنا... ويضعون يدهم على معدة الجارة.

ـ هنا... هنا...

ـ ٥ ـ

في المخيَّم الخلفي، وفي مناسبات الزواج، والمعموديَّة، يستسلمون للمجون، ولشرب الكاشاسا، على أنغام القيثارة، الأمر الذي ينتهي أحياناً

إلى الشجار وضرب الخناجر، والشرطة.

نادراً ما كان يحصل ذلك، إلاّ إذا أفرط أحد المدعوين في الشراب ولامس عن قرب امرأة تقوم بالخدمة. يستمرّون، غالباً، في الرقص حتى ساعة متأخّرة من الليل: عمال وعسكريون. عدد وافر من الرجال وقلّة من النساء؛ "أكورديونات"، قيثارات، مداعبات، عرق من قصب السكر، جميعهم ينسون، ولو لبرهة من الزمن، الشغل المرهق، والاستثمار الذي يعانون منه، والجوع الذي ينتظرهم، والعاطلون عن العمل يغرقون تعاستهم في الكاشاسا، ويعلنون سخطهم عالياً على أرباب العمل إذا راق لهم ذلك، يساندهم حتى العسكريون.

- ٦ -

يتلهّون، في البداية، بالخطب التي يلقيها الشباب الملتحون عند أبواب المصانع، وعلى أرصفة المرفأ. يرتابون من أولئك الشبان كما يرتابون من العملاء الانتخابيين الذين كانوا يجيّشونهم لكي ينتخبوا مرشّحي الحكومة. بدأ العمال يتنادون بكلمة "رفيق" ويقصّون تاريخ حياتهم وشقائهم، واستثمارهم. أصبحوا يصغون بانتباه أكثر. والآن يصغون بانتباه كليّ. لم تعد مجرَّد سلوى تلك الصرخة:

- يا عمال العالم اتحدوا!

إنها صرخة قد تؤدي بهم إلى السجن، وتؤدي إلى ضربهم، ونفيهم، إلاّ أنها قد تحطّم السجون وتنهي عهد الضرب والنفي.

الدين

- ١ -

صعد ساعي البريد وهو يرغي ويزيد كما في كل مرة يقع فيها على رسالة موجَّهة لأحد المقيمين في الـ٦٨، فعليه أن يبحث عن المرسل إليه في كافة طبقات البناء الذي يعجّ بالسكان. لم يحفظ الأسماء لعدم تكرارها. وكذلك الأمر بالنسبة للاسم الذي يعنيه اليوم: "دونا ريزوليتا سيلفا، مونتي ـ دو ـ بيلورينيو، ٦٨، باهيا". سبق له أن استعلم في الطبقة الأولى والثانية، وقيل له في الثالثة، والمكان هو حجرة الدرج دون أن يتيح له الاستفسار عن التوقف برهة لكي يتنفّس. غير أنه توقف ليرتاح، ثم تابع صعوده ساخطاً. عندما وصل إلى الباب كان قد فقد قدرته على الصياح عالياً: ساعي البريد. نادى جوليتا التي كانت خارجة من بيت الخلاء وسألها:

ـ هل يوجد هنا سيدة باسم "ريزوليتا سيلفا"؟

ـ نعم . سيدي... لماذا؟

ـ لها رسالة.

ـ دونا ريزوليتا. دونا ريزوليتا!

ـ ما بكِ؟

ـ الساعي يحمل إليك رسالة.

توقّفت ضجّة ماكينة الخياطة، وظهرت السيدة ريزوليتا وليندا مبغوتتين، في باب الغرفة.

كان الساعي يرتاح مستنداً إلى الدرج، مرسلاً نظره خلسةً إلى جولييتا.

ـ رسالة لي؟

ـ للسيدة ريزوليتا سيلفا. هذه أنت؟

ـ نعم.

ـ إذاً، خذي.

فكّر:

ـ هؤلاء الناس لا يستلمون رسائل ابداً.

ألقى نظرة أخيرة على ساقي جولييتا، ثم تمنّى للسيّدتين نهاراً سعيداً، ونزل.

لم تكن، بالفعل تصل لهؤلاء الناس رسائل بالمعنى الصحيح. فمن وقت لآخر، يُعلمهم بعض الأقارب المنسيّين بولادة، أو بمعمودية، بزواج أو بوفاة، وتكون الرسالة موجّهة لجميع من هم في حجرة الدرج. أما صاحب الحظّ الذي يستلمها فكان ينقل قصة أهله بجميع التفاصيل معيداً القراءة إذا حصل أن نسي شيئاً.

من هنا إن السيدة ريزوليتا لم تفاجأ برؤية جميع نساء الحجرة متحلّقات

حولـها باعتبار أن مايشكّل مفاجأة بالنسبة لـها هي الرسالة بحدّ ذاتها. فمـن يكون المرسل؟ توجَّهت إلى الغرفة برفقة الجارات وهي تتفحَّص الكتابة:

ـ يُخيَّل إليَّ أن الخط هو خطّ مالاكياس.

ـ من هذا؟

ـ أخي الذي توفي منذ عشرين سنة.

ظلت على هذه الحال ضائعة النظـرات، تستعيد ذكـرى شـقيقها إلى أن فقدن ليندا صبرها.

ـ الأفضل أن تفتحي الظرف في الحال، يا ديندينا...

هكذا...

ـ الحق معك. أكّدت جوليتا.

فتحت الرسالة وقرأت ليندا النشرة.

لكنيسة سيّدة البرازيل

«للمرة الأخيرة أتوجَّه إليك لأطرق باب قلبك الطيّب، سـائلاً ومتلمّسـاً مساهمة أخيرة من أجل إنجاز أعمال كنيسة سيدة البرازيل. ومن أجل بلـوغ هذا الـهدف ينبغي أن يقوم مائتا شخص بإرسـال مئـتي ألـف ريـس موزَّعـة على عشر دفعات من عشرين ألف ريس الدفعة الشهرية، وخمسـون آخـرون بإرسال مئة ألف ريس موزعة على عشر دفعات أيضـاً بقيمـة عشـرة آلاف ريس شهرياً للدفعة الواحدة.

إقبلـي أن تكونـي في عـداد هـؤلاء المحسنين، ولتهبـك العــذراء الكلّيَّــة

القداسة، مقابل مساهمتك النعمة التي تبتغينها بحرارة.

خادمك في المسيح

الأب مولانو دالفا»

مكثن صامتات تحت وطأة الانفعال، وأخفضت دونا ريزوليتا رأسها، ولم تجد ما تقوله. أمَّا ليندا فأخذها الاختيال:

ـ أنت شخص له مكانته، أليس كذلك يا ديندينا!

ـ مائتان وخمسون شخصاً فقط، أنا متأكدة أن الأب مولانو اختار الأشخاص بعناية فائقة، وأنت منهم.

اعترضت جولييتا.

ـ من جهتي يا ابنتي، لكنت طردته فيما لو فكّر بي. هؤلاء لصوص. يريدون مال الغير ليملأوا جيوبهم.

امتعضت ليندا، لكن جولييتا تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك:

ـ تشتغل دونا ريزوليتا مثل العبيد وأسوأ. وهي بالكاد تستطيع دفع إيجار هذه الغرفة القذرة في آخر الشهر. تعيشان في التقتير، وتصدّقان أنكما من أصحاب الشأن بمجرد ما اختاركما هذا الكاهن اللص ليسرق مالكما. يا لها من حظوة لا تقدَّر.

ـ ربَّما، لكنني لست بحاجة إلى نصائحك. تكرَّمي وأقفلي الحديث.

ـ إسمعي ما أقوله... إنك تعرضين نفسك للسرقة، فليكن.

ـ أنا... أنتِ في الحقيقة لست سوى كسولة... إنك تقتلين هذه العجوز المسكينة.

ـ انصرفي.

كان الحاضرون يتمتعون بالمشهد. أرادت دونا ريزوليتا أن تقول شيئاً، لكنها ظلّت صامتة ويدها معلّقة في الهواء. وبما أن المسلولة كانت تسعل في الغرفة المجاورة، ارتعشت، ورمت الورقة. فكّرت أن باستطاعتها أن تكون من بين الخمسين الذين سيدفعون مئة ألف ريس على دفعات شهرية من عشرة آلاف ريس الدفعة الواحدة لتلتمس النعمة التي طالما تمنّتها من كل قبلها: زوج غنيّ وخلوق للبندا...

رجعت إلى ماكينة الخياطة، واشتغلت حتى الساعة الثانية صباحاً، بالرغم أن عينيها تؤلمانها بسبب ضوء الشمعة، وان ساقيها اللتين يسيل منهما العرق كانتا متحجّرتين من جرّاء صعودهما وهبوطهما مع الدوّاسة. خيّل إليها أن داء المفاصل القديم قد عاودها. وفيما هي تهمُّ بالقيام إلى النوم، سعلت المسلولة.

تذكّرت وهي ترتعش أنها تقتصد مبلغاً من المال صغيراً تقرضه إلى فيرا في آخر الشهر لتتمكن من إحضار الطبيب، علّه يوقف سعال المسلولة. لكن، كنيسة نوترام... المسلولة... نوتردام... آلمتها ساقاها بشكل فظيع، وتباطأ النعاس في إغماض عينيها اللاهبتين بالإضافة إلى أن السرير لا يتسع إلاّ لشخص واحد، وهي تنام لجهة الحائط لتجنّب ليندا وطأة الحرارة.

- ٣ -

ظلّت الزنجية واقفة على درجة السلّم والخوف يفتح عينيها. هل هي المقصودة؟ لا اعداء لها. لم تسرق زوج أيّ امرأة. لقد طعنت في السن ولم تعد تستهوي الراغبين بها. لن تمرّ في مطلق الأحوال، فوق الصرَّة المسحورة. جلست وانتظرت. كان المنزل يستفيق شيئاً فشيئاً، والبعض يغسلون وجوههم فوق مغسلة صحون الحجرة، بينما كان مقهى "فرننديز" يفتح أبوابه، ويطلّ بعض الرجال عند حافّة الدرج.

انضمّ توفيق إلى الزنجية.

ـ نهارك سعيد، يا سيّدة ماريا.

ـ نهار سعيد يا رجلي الأبيض.

ـ ألا تنزلين؟

مدَّت إصبعها وأشارت إلى صرَّة أوراق الصحف. صفّر توفيق.

ـ قذر. تباً له! لمن يمكن أن يكون هذا؟

يؤمن العربي ايضاً بذلك؟ ومن هو الذي لم يقع تحت تأثير ديانة الزنوج البربريّة؟

لم تمضِ بضع دقائق إلاّ وتكثّف الجمهور. رجال ونساء أحاطوا بالرقيّة دون أن تكون لديهم الشجاعة على اجتياز الدرجة التي وُضعت عليها.

نزل الإسكافي الإسباني، وشقَّ طريقه وسط الجمع دون أي فضوليّة. وقبل أن تطأ قدمه الدرجة المسحورة، صدَّه أحد الحاضرين ممسكاً إياه بكمّ قميصه.

ـ إحذر. ستدوس القدر.

ـ آه. هل هذا ما يمنعكم من النزول؟

وضع قدمه على الصرّة التي انفلشت. فنظر إليه الحاضرون مذعورين.

ـ يا له من قدر جبّار. الغاية هي قتل امرأة اجتذبت أزواج الأخريات.

ـ أكيد.

ـ هذا لـ «نايير» ثرثارة حجرة الدرج.

طحين بزيت البلح. ريش دجاجة سوداء. أربع أوراق نقديّة من فئة الألف ريس وأربعة سنتيمات. بعض شعرات جعداء كأنها شعرات إبطٍ أو زنجي. سروال امرأة.

ـ يا له من حظٍ سيء.

نظر الحاضرون إلى الإسباني بشفقة. سيحلّ عليه غضب «أوغوم» دون شك، وستسقط فوقه كل لعنات "الأوريشا"(*).

سأل الفوضوي:

ـ من يرغب في أخذ الأربعة آلاف ريس؟

(*) إلـهة الديانة الأفرو ـ برازيلية.

ولما لم يعلن أحد عن رغبته، التقط الأوراق ووضعها في جيبه.

أمّا ما تبقّى من الصرّة فامتزج بأوساخ الدرج.

- ٤ -

اتكأت "روث" على اللوح، وقرأت أولاً وثانياً. ولكي تتمكّن من إيصال الريشة إلى ما تبقّى من حبر في المحبرة، وضعتها فوق السدادة، بعد أن ارتجلت مسكة ريشة بربطها الريشة بقلم الرصاص. انحنت (فوق الصفحة البيضاء من الدفتر الذي قد اشترته من مقهى فرنانديز بخمسمئة ريس) وبدأت تكتب بعناء. لقد تعلّمت، بالكاد، أن تقرأ وتكتب؛ وما من عملٍ يبدو لها أكثر صعوبة من الكتابة... ولكن، ما العمل؟ كان العرق ينضح منها كحمّال في المرفأ، والريشة تصرّ، وهي تجهد في صياغة كلماتها:

"نسخة من سلسلة القديس أنطونيوس"

أكمل هذه السلسلة، وأرسلها إلى ثلاثة عشر شخصاً ممّن يتمتعون بالذكاء، والإرادة الطيبة، وتمنّى لهم السعادة والهناء. لقد أطلق هذه السلسلة في فرنسا، بجنّد أميركي، وهي مدعوّة أن تدور حول العالم موحّدة بين المؤمنين بالقديس أنطونيوس. بعد مرور أربع وعشرين ساعة على امتلاكك هذه الرسالة، إنسخها إذا أمكن، وأرسل النسخة إلى شخص من محيطك. لا تقطع هذه السلسلة،والقديس أنطونيوس سيلبّي كل حاجاتك، ولكي يخصّك صانع المعجزات الممجّد، القديس أنطونيوس البادواني بأعاجيبه الكبرى، إقرأ "النؤمن" ثلاث عشرة مرّة في النهار، واكتب ثلاث عشرة

نسخة من هـذه الرسـالة ـ واحـدة كـل يـوم ـ وأرسـلها إلى أشـخاص مـن أصدقائك. يمكن أن تترجم الرسـالة إلى جميـع اللغـات. اطلـب مـن القديـس أنطونيوس نعمةً في اليوم، وهو يهبك إياها. بعد تلاوة "النؤمن" ثلاث عشـرة مرة، ردِّد الدعاءات الآتية:

أيها القديس أنطونيوس البادواني، إرحمنا.

أيها القديس أنطونيوس البادواني، تضرَّع ليسوع من أجلنا.

أيها القديس أنطونيوس البادواني، أحمنا.

عرق الجبين

- ١ -

خرج الطبيب مستعجلاً. شدَّته المرأة الشاحبة التي تصطحب معها قطيعاً من الأولاد، بكمّ قميصه.

ـ وحياة أولادك قل لي أيها الطبيب، هل سينجو زوجي؟

وضع الطبيب قبَّعته على رأسه، ونظر إلى الأولاد. ستة صبيان.

ـ ما عمر البكر؟

ـ هل سيموت جواكيمي أيها الدكتور؟

ـ لا. سيتعافى؛ لا تخافي... من هو هذا الولد؟

ـ جوآو... اسمه جوآو نسبة إلى جدّه... عمره عشر سنوات.

ـ مستوى نموّه ست سنوات.

لم تفهم المرأة.

ـ صغيرهم، عمره ثمانية أشهر.

ـ وسيلحق به ولد آخر. أليس كذلك؟

أخفضت ناظريها خجلاً. أمَّا الرجل فتنهَّد في الغرفة.

- سأعود بعد الظهر، اشتري الأدوية.

بعد أن همَّ بالخروج، التفت ونادى المرأة.

- هل لديك ما ستدفعينه ثمن الأدوية ؟

- أحتفظ دائماً بالقليل من المال من تنظيف الغسيل.

- حسناً. سأعود بعد ظهر هذا اليوم.

نزل، وشقَّ طريقه بين جمهرة الأولاد القذرين. فكّر بمؤسسات الإحسان، ورعاية الطفولة، ومكافحة الأميَّة، لدى رؤيته هذه البطون المنفوخة المليئة بالدود، وهذه الأفواه الصغيرة المكسَّرة الأسنان،وهذه الألبسة المصنوعة من بقايا سراويل وقمصان "الكليكوت".

- ٢ -

الباب يغصّ بالناس.

الزنجي هنريك، شيكو، وصاحب الأسنان الناتئة، وألفارو ليما، وأرثور، والبائع المتجول، وغيرهم، كانوا يجعلون الهواء غير قابلٍ للاستنشاق.

استهل صاحب الأسنان الناتئة الحديث:

- يقول الطبيب إن جواكيم سيظل أعمى. لن يموت... لا. ولكن...

- من الأفضل أن يموت.

- لديه ستة أطفال.

ـ وزوجته! مسكينة: ستموت من فرط ما تعمل في غسل الثياب. إعالة سبعة أطفال!...

ـ تفِه!

ـ هل تعرفون كيف وقع الحادث؟

أجاب أحد رفاق جواكيم بصوت عالٍ كما لو كان يلقي خطاباً:

ـ كان يشتغل كمساعد بنّاء في "غارسيا" حيث يبني منزلاً لطبيب يلحّ في الإسراع بالعمل. كان جواكيم واقفاً على السقالة يتلقّى القرميدات التي يرمي بها "زه ـ بوتيت ـ مان" من الأسفل. شيء ممتع. رمى "زه ـ بوتيت ـ مان" قرميدةً تبعتها أخرى بسرعة وبقوّة.

ويزداد الجمع عدداً. أناس يزدحمون أمام الباب، وآخرون يجلسون على قارعة الطريق.

ـ جاء الطبيب ليتفقّد سير العمل. وجد أن كلّ شيء متأخّر. نعتنا بالكسولين واللصوص. نسرق ماله، هكذا قال. كنت أتمنّى أن أراه معلقاً هناك في الهواء ليتناول قطع القرميد.

ـ استماريون!

دفعنا إلى الاستعجال في العمل. سرّع "زه ـ بوتيت ـ مان" حركته. ارتبك جواكيم فأصابته القرميدة في جبينه، وملأت عينيه غباراً، فسقط من السقالة. يا لهذا السقوط! كأنه كيس.

كان المستمعون ينظرون صامتين إلى المتحدّث الذي تشنّجت يداه.

تابع:

ـ تـأخّر الإسـعاف في الوصـول. فنُقـل جواكيـم إلى شـاحنة، وأُعيـد إلى البيت، ووصل رجـال الشـرطة الذيـن قبضـوا علـى "زه ـ بـوتيـت ـ مـان" المسكين.

ـ والطبيب؟ هل بقي هناك؟

ـ أستقلّ سيَّارته وانصرف.

ـ ابن الشرموطة!

وقف ألفارو ليما، وقال:

ـ أيها الرفاق، يجـب التخلـص مـن المسـتثمرين. نحـن عديـدون، فقـراء، وسخون، لا نجـد مـا نـأكل؛ لا بيـوت لنـا، نقيـم في هـذه الغـرف الحقـيرة. يستثمرنا الأغنياء القليلون... علينا أن نتّحد جميعاً لندافـع عـن أنفسـنا... في سبيل ثـورة العمـال، يجـب أن يلتـفّ العمـال حـول حزبهـم للقضـاء علـى المستثمِرين، وعلى الحكومات المتعفّنة التي تسرقنا. يجـب أن نشـكّل حكومـة من العمال والفلاحين. تأمّلوا في حالة جواكيم. لأن الطبيـب يريـد أن ينجـز بيته، بأقصى ما يمكن من السـرعة، فَقَـد واحـد منّـا بصـره، والآخـر هـو في السجن.

ـ والأولاد...

ـ الأولاد في البؤس... فليسقط الاستثمار!

- ٣ -

عاد الطبيب مرّات عديدة. انتزعت الصيدلية ما تبقّى من نقود. راح الجيران يقدّمون للأطفال ما يأكلون. أخيراً، وبعد مرور شهر، مات جواكيم.

قام صاحب الأسنان الناتئة باكتتاب لتغطية نفقات الدفن الذي شارك فيه كثيرون سيراً على الأقدام. تمسكت الزوجة بالنعش، لكنها اضطرت أن تتركه لتهتم بالأطفال الذين يطلبون الأكل. وحده أكبر الأطفال سناً وقد أصابه الهزال، وانتفخ بطنه، وجحظت عيناه، كان يبدو وكأنه يعرف ما يحدث.

أرادت امرأة أن تعرف سبب الوفاة.

أجاب الأحمر:

ـ قتله أحد الأثرياء.

ـ لماذا؟

ـ لأنه كان عصبياً.

شدَّ الولد ذراع الأحمر.

ـ من قتل والدي؟

ـ الأغنياء.

التمعت عينا الولد.

كانت الأرملة تبكي، وهي ترضع الطفل الذي لا يزال في الشهر الثامن.

- ٤ -

بدأت الزوجة تعجز عن القيام بعملها، لاضطرارها إلى الاهتمام بالأولاد، فقلَّ عدد الزبائن، وبدأت ربّات البيوت تشتكي من فقدان المحارم، والجوارب، ومن سقوط الأزرار عن البزّات البيضاء. ثمَّ، جاءت الملاريا لتجهز على ما تبقّى لها من عافية.

عندما أدركت أن ليس بوسع الجيران إعانتها، تركت الفراش بالرغم من الحمَّى، وراحت تجوب الشوارع الغنية حاملةً طفلها الصغير والعريضة التي حرَّرها لها، حطّة - نطّة:

"أيها الأخوة الأعزاء!

أراني مرغمة عند هذا الحدّ من العوز أن أتوجَّه إلى ابطالي البرازيليين النبلاء، طالبةً إليهم، صدقة، مساعدة ما لأرملة مسكينة، تجد نفسها وحيدة مع أطفالها الستة. تطلب منكم، وقد أصبحت عاجزة عن العمل فارغة الجيب، تكابد الجوع، أن تساعدوها، لوجه الله، وباسم محبتكم لآبائكم ولأولادكم، بما تيسَّر لديكم.

نقبل الثياب

بارككم الله"

كان البعض يجود عليها بقطعة نقود. بينما يقول الاخرون: "ليس لدينا

اليوم ما نعطيه". أمَّا هي فتجيب دائماً:

ـ أعان الله جميع من في هذا البيت.

في أحد منازل "بارا"، وهو فندق خاص، تغطّي واجهته شجرات المانغا، وتنتشر المقاعد في ظلاله. تناولت الخادمة الورقة، بينما جلست المرأة عند باب المرآب تطعم طفلها. لم تمضِ سوى بضع ثوان حتى سمعت قهقهات، وقرقعة ملاعق الطعام، تأتي من داخل البيت. لم تكن قد تناولت طعاماً بعد، والتحوال الطويل يؤلم رجلها، ويبلّلها بالعرق. تضاعفت القهقهات. ثم قال أحد من الداخل:

ـ طريفة هذه العريضة... يا له من إنشاء!

علا صوت امرأة محتجّة:

ـ دع هذه الورقة، "جيرونيمو"! لا بدَّ أنها مليئة بالجراثيم.

عادت الخادمة بالورقة. ردَّتها واعتذرت:

قالت ربَّة البيت أن لا شيء لديها اليوم. عودي غداً.

كانت تهمُّ بالانصراف عندما فُتح باب المرآب، وخرجت سيَّارة تقلّ رجلاً وامرأة. قفزت الأرملة مخافة أن تُسحق.

احتجّ السائق:

ـ إفسحي الطريق، أيتها القذرة!

نظر إليها الرجل والمرأة بارتياب.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أنا صاحبة الورقة... كنت ذاهبة.

همست الزوجة:

ـ قد تكون سارقة...

سمعت المرأة.

ـ سارقة! لا. أيتها السيّدة.

ـ إخرسي!

ـ سارقة، لا. أيها السيّد. مات زوجي لأنَّ ثرياً مثلك كان مستعجلاً. أنا مريضة. لكنني لست بحاجة إلى مالك الملعون.

ـ ابتعدي من هنا وإلاّ استدعيت الشرطة.

ـ استدع من تشاء! أنتم هو السارقون. أنتم الذين تجمعون ثرواتكم من عرق جباهنا. أيها اللصوصّ هذه السيَّارة، دُفع ثمنها من عرق زوجي.

أمر الزوج السائق، واندفعت السيَّارة صامتةً على الإسفلت، والأرملة لا تزال تصيح:

ـ لصوص!

ضمَّت طفلها إلى صدرها، واستأنفت سيرها.

ـ ٥ ـ

دفع "أرثور" بالأفعى إلى الصندوق، وجلس فوقه. بينما نزع البائع المتجوِّل سترته البيضاء، ووضعها على السرير، وراح يفتّش بين خليط الأشياء التي تملأ العلبة عن الإبرة وبكرة الخيطان. أمسك الإبرة بيده اليسرى،

وأخذ يحاول إدخال الخيط في التقب المحجوب باليد اليمنى.

نهض أرثور، وخرج ليغسل وجهه المرشوش بالمسحوق والملطّخ بالأحمر، لدى عودته كان البائع المتجول يرتق كمّ سترته البالي والأفعى تمدّ لسانها من خلال الشعريّة.

ـ أنتَ بحاجة إلى امرأة.

قال البائع متعجباً:

ـ هذا ما تظنّه، في هذا المنحى الذي تسير فيه الأمور... لم يسبق لي أن رأيت ذلك. قد لا يطول الوقت حتى نموت من الجوع.

ـ ما عدا "جينوفييفا" أشار إلى الأفعى.

ـ طالما هنالك جرذان، فهي ستزيد سمنةً.

ـ سينتهي بنا الأمر إلى ما هي عليه.

ـ كيف؟

ـ ستكون الجرذان غذاءنا.

ألقى السترة:

ـ كم كسبنا اليوم؟

ـ لا شيء تقريباً. بعنا ثلاث زجاجات منظّف، وقطعتي صابون، واشتغلنا كلّ بعد الظهر.

ـ هذا، لا يكفينا لنأكل.

ـ الأمور سيئة فعلاً.

ـ يجب أن نأمل بأنها ستتحسَّن.

تمشى أرثور عبر الغرفة.

ـ تتحسَّن! هذا هو الأفضل! عندما تندلع الثورة!

ـ عمَّا تتكلّم؟

ـ عن ثورة العمــال... يجب أن تقـرأ هـذا. أنظـر مـاذا فعـل العمـال في روسيا.

تناول البائع الكتاب، وأخذ يتفحَّصه. هبط الليل دون أن يفكّرا بالعشاء. لقد تناولا طعام الغذاء. وجبة واحـدة تكفـي. وحدهـا «جينوفييفـا» كـانـت تتعشّى.

نزل البائع على الدرج ليتفقّـد مصيـدة الفـئران، وعـاد بجـرذٍ سمـين رائـع منتوف الشعر.

علّق أرثور على ذلك قائلاً:

ـ هذا يصلح "لبينتيك" شهيّ.

ثم التفت وأضاف:

ـ سأتزوَّج يوم أجد امرأة تأكل الجرذان.

أفلت البائع الجرذ الذي أسرع خائفاً إلى إحدى زوايا الغرفة. أمّا الأفعـى فلم تتحرّك.

ـ "جينوفييفا" ليست جائعة.

لم يمضِ إلاّ القليل حتى سمعا صريراً ثاقباً.

ـ لقد قرَّرت "جينوفييفا" أن تتناول العشاء.

اعترف البائع:

ـ أشعر بجوع ليس بعده من جوع! أعطني مئتي ريس. أريد أن أشتري كأس "مينغو".

نزل الدرج، بينما صعد أرثور إلى الطبقة الرابعة، وتوجَّه إلى غرفة ألفارو ليما حيث خمسة رجال يتجاذبون الحديث.

- ٦ -

نزل الرجل في الساعة التي كان ينزل هو فيها أيضاً. لم يكلّمه إلاّ عندما وصلا إلى الباب. ينبعث من فمه لهاث حار يتساقط على وجه بائع المواد المنزليّة. بالرغم من فتور الليل، وانحباس الهواء، كان الرجل يخبّىء يديه في جيبَي سترته، ويبدو مقروراً. عيناه المفتوحتان باهتتان، وذقنه مستدقّة الرأس.

ـ هل تسكن هنا؟

ـ نعم. في الطبقة الثالثة.

ـ الأشياء كلّها غالية الثمن.

ـ غالية الثمن؟ صحيح. ولكننا لا نجد ما هو أقلّ ثمناً منها.

ـ ولا في أيّ مكان آخر؟

يزداد ذقنه دقّة وهو يطرح أسئلته القلقة على البائع. حدَّق في وجه الآخر، وكرَّر السؤال:

ـ لن نجد ما هو أرخص ثمناً منها؟ كل الأشياء غالية...

ـ هل سألت في حجرة الدرج؟

ـ لا توجد غرف خالية.

ظل واقفاً ينظر إلى الشارع حيث الهواء جامد وثقيل. ومع هذا كان يرتجف. سحب يديه من جيبيه، وحفّهما الواحدة على الأخرى وقال فجأة:

ـ نعم... إنك تعلم... كل شيء مرتفع الثمن... أنا مدين بإيجار شهرين. أقيم في شارع "دي كابيتان"... تقبض المرأة يومياً، وتطاردني. هناك أنا وزوجتي وماريا كلارا.

ـ سرجيبانيّة(*) ـ وطفلان. سينتهي بنا الأمر جميعاً إلى التسوّل.

توقّف متعباً ثم بصق، وغرز قبّعته في رأسه، وتابع:

ـ كنت أعمل في مصنع "أورورا" الذي افلس. وها أنا ذا عاطل عن العمل منذ ثلاثة أشهر... بدأت زوجتي تغسل الثياب. إلاّ أنها لا تتحمّل ذلك... يجب أن أخلي الغرفة اليوم. تعرف؟ لكن الغلاء يلتهم كل شيء... هم، يطلبون المال مسبقاً. كيف ستجري الأمور؟...

زجّ يديه في جيبيه.

ـ هل من غرف خالية في البيت المجاور؟

ـ لا أعتقد. لماذا لا تسأل هناك، في المخيّم الخلفي؟

ـ لقد قصدته. إنه ملآن.

(*) نسبة إلى سرجيبي، مقاطعة برازيلية.

نظر إلى الشارع بصمت. بصق، وسحق البصقة بقدمه. كان البائع يقلب في يديه المئتي ريس التي يملكها. فكّر أن يعطيها إلى الرجل. لكن المبلغ زهيد. رفع الرجل "مقالب" سترته، ألقى نظرة على الدرج، وحيّا.

ـ طيّب... أعذرني... ليلة سعيدة.

وقف هنيهة حائراً لا يعرف إذا كان سيصعد الزقاق أم سينزل. أخيراً، اتخذ قراره، واتّجه صعوداً. لا يزال البائع يراه يرتجف، من بعيد، وذقنه تتقدَّمه. كان يخيَّل إليه أنه يسمع صوته الخافت، ويشعر بلهاثه الحار. رسم بيده حركة واهنة، وبدأ، هو أيضاً، يشعر بالبرد، ويرتجف في الليل الفاتر.

- ٧ -

ترتدي الإيطالية التي تؤجر الطبقة الثانية، ألبسةً تغطّي عنقها وذراعيها، وأثواباً تجرّ أذيالها على الأرض لفرط ما كانت طويلة. وفي كل مرَّة كان يراها هنريك الزنجي يقول:

ـ هذه عانس عن قناعة، بدعوة من الربّ.

كانت تمرّ بقامتها المتصلّبة، وحذائها الأسود، ونظارتيها الذهبيّتي الإطار، دون أن تحيّي أحداً. تضع أسناناً اصطناعية؛ فرنديز وحده يحظى، وهو في حانوته، بتحيَّتها المسائية. كذلك، كانت ترمي مئة ريس في كيس كاباسا عندما يكون قابعاً عند الباب، فيغمغم المتسوّل بعض كلمات الشكر الممتزجة بالشتائم:

ـ أعانك ا لله يا ابنة القحباء، فلتتحطّمي على الدرج.

ينتزع هذا الدعاء الضحك من أعماق الزنجية بائعة المانغا. أمَّا الإيطالية فلم تكن تسمع ما يقول كاباسا لأنّها تكون قد ابتعدت وهي في طريقها إلى حلقة مناجاة الأرواح التي تتردَّد إليها. كانت وسيطاً ذائعة الشهرة. ويُروى عنها أنها كانت عندما تسكنها الأرواح، تنشد بلغتها أغنيات نابية، وتقوم بحركات فاجرة، وأن أكثر ما كان يسكنها هي أرواح الكهنة الفاسقين، والنساء العاهرات، الذين يقصّون مغامراتهم السافلة للحصول على الغفران. أمّا الأرواح الطاهرة فما تحلُّ عليها إلاّ نادراً، وإذا حصل أن ارتكبت تلك الأرواح مثل هذه الحماقة فكانت الأرواح الشريرة تختلط فيها، وتنقلب عليها. من هنا، يتوافد الكثيرون إلى الحلقات التي تقام في شارع "سان ميغال" حيث تكتسب الإيطالية هالة من القداسة.

أمَّا الزنجي هنريك فكان يقول متهكماً:

ـ لا شك أن هذه العانس مصابة بالهستيريا، وهي بحاجة إلى رجل.

ثم يقهقه ضاحكاً على رأس المؤمنين.

- ٨ -

طرقت الإيطالية باب الغرفة بأصابعها المعقّدة. وكانت الضربات ترنّ لجوجةً كالأمر. وبما أن الباب لم يُفتح في الحال، كرَّرت الضربات مرفقة إياها ببعض الصرخات:

ـ سو جوآو.

أجاب صوت من داخل الغرفة:

ـ ها نحن.

عندما فتح الباب، وظهر أمامه وجه تغطّيه لحية كثّة عمرها بضعة أيام. كانت الإيطالية لا تزال واقفة، ويداها مكتوفتان وراء ظهرها، والابتسامة على شفتيها:

ـ هذا حسابك. نحن في الثامن عشر من الشهر، وقد استحقّ في الخامس منه.

جسَّ الرجل لحيته بيده، وأخذ الورقة التي تلتمع فيها الأرقام:

ـ أصبري قليلاً. أليس بالإمكان أن تمهليني حتى آخر الأسبوع. أنا موعود بوظيفة.

توارت الابتسامة من على شفتيَ العانس الجافتين، وتقلّصتا، مضيفةً على وجهها مسحة شريرة.

ـ انتظرت طويلاً، سوجوآو؛ ومنذ الخامس من الشهر وأنت لا تزال تردّد الأغنية نفسها. الانتظار... الانتظار... بحقّ السيدة! أفَلَست أنا ملزمة بأن أدفع للمالك؟ ألست بحاجة إلى أن آكل؟ لم يعد بإمكاني أن أنتظر... أنا لست أمّ الإنسانية.

كانت تقطِّع جملها فترنّ بصورة مأساوية.

بكى طفل في الغرفة، فحكَّ الرجل لحيته وقال:

ـ تعرفين أن زوجتي وضعت طفلاً في الأسبوع الفائت. لهذا السبب لم

أدفع. وبعد، فقد صُرفت من وظيفتي.

ـ ماذا بوسعي أن افعل، أنا؟ لماذا تنجبون أطفالاً؟ هل هذه هي خطيئتي؟ أريد الغرفة. حاول أن تخليها. وإلاّ رميت بهذا القطيع في الشارع... لن أنتظر إطلاقاً!

ابتعدت، متخشّبة في ثوبها المنشّى، فأغلق الرجل الباب ووضع وجهه في يديه كي لا يرى زوجته تبكي بالقرب من الطفل، وقال في نفسه:

ـ سأرتكب مصيبة!

ـ ٩ ـ

لم يجد غرفة ينتقل إليها، ولا مالاً يدفعه للإيطالية وصار يأوي متأخراً بعد أن تكون قد نامت. يقضي وقته في الشوارع مختلساً سيجارة من هذا، وبعض النقود من ذاك، ليعيل زوجته التي صارت حياتها جحيماً بعد أن أصبحت لا تستطيع الذهاب إلى المغسلة إلاّ وتسمع صراخ الإيطالية:

ـ إرحلوا. إرحلوا ! إذهبوا واغتسلوا في غير هذا المكان.

بالفعل، انقطعت المياه، واضطرت الزوجة للتوجّه إلى المخيم الخلفي حيث تنظّف الغاسلات الثياب، لتتمكن من غسل طفلها، إلى أن اضطرت أخيراً إلى استخدام بيت الخلاء لهذه الغاية. في هذه الأثناء، راحت الإيطالية تتسلّى بمضايقتها؛ فما تكاد تلمحها حتى تسرع إلى إخفاء المفتاح، ممّا جعل الغرفة، بسبب هذه المضايقة، قذرة إلى حدّ إثارة القرف. أمّا جوآو فكان

يحكّ لحيته الكثّة واهن العزيمة.

في أحد الأيـام، وبينمـا هـو عـائد بعـد منتصـف الليـل إلى الغرفـة، رأى الإيطالية في انتظاره. فلاصق الحائط لكي يمرّ.

مساء الخير.

ـ لم تكن تتوقّع أن تراني هنا، أليس كذلك؟ أريد أن تدفع بدل الإيجـار، وتخرج إلى الشارع وإلاّ استدعيت الشرطة غداً.

ـ ولكن؟

ـ لا مجال لـ "لكن". في نيّتك أن تكلّمني عن الوظيفـة! تقضـي الليـل في الشراب، وتنام في النهار، أليس كذلـك؟ أنـا لا أرعـى متسـكعين... دونـك الشارع، دونك الشارع.

ـ ولكن زوجتي؟

ـ زوجتك تملأ الغرفـة أوسـاخاً. لا تحسـن القيـام بـاي عمـل، حتـى ولا بغسل الثياب. لماذا لا تبحث لنفسها عن رجل؟ قد تكون صالحة لمثل هكـذا عمل.

اتسعت عينا جوآو، وغشي بصره، وارتمت الإيطالية تحـت وقـع الكلمـة وهي ترسل صرخات حادة. وما أن رأت يديَ الرجـل تقتربـان مـن عنقهـا، حتى انحدرت مسرعة على الدرج، وهي تصـرخ "النجـدة". أرخـى جـوآو ذراعيه، وحكّ لحيته، وذهب إلى الغرفة ينتظر الشرطة.

رأى المفوض أن الحق هو بجانب الإيطالية، وكذلك الصحف، الـتي حـدا

الأمر بإحداها إلى نشر صورة أُخذت لجوآو في ميلان وهو في الثامنـة عشـرة من عمره. دخل جوآو السجن. أما الأثاث، ــ كرسـي ــ محمـل معـاطف ــ وسرير، فقد بقي حيث هو تسديداً لبدل إيجار الغرفة.

أزمة

- ١ -

رمى الكمان على السرير، فوقع دفتر "السامبا" على الأرض مغلقاً. لم يقم بأي حركة. ما همّ؟ اقترب من نافذة الغرفة، وبقي بالقرب منها ينظر إلى سطوح المدينة السوداء القديمة. كانت الأزقة وكأنها أذرع المدينة الممدودة إلى السماء. هناك، في الأسفل، في وسط الزقاق المحصب، يرتفع عامود التشهير الذي نصبه المستعمرون البرتغاليون. اختفى العامود، لكن الزقاق الذي حمل اسمه كان أيضا كعامود تشهير، فجميع الذين يقيمون هناك، يعيشون حياة فقيرة معدومة من الخبز والعمل. فكّر بـ "ألفارو ليما" المحرّض. لقد قال بأن الأمور لن تتحسَّن إذا لم يسيطر العمال على البلاد. سبق له أن عرف مخططاته للإضرابات والتجمّعات. مجموعة من الرجال الوسخين يجتازون الزقاق صعوداً، والعرق ينضح منهم، ففهم عازف الكمان، للمرة الأولى، ما ستكونه ثورة هؤلاء الرجال المستثمَرين يوم يكتشفون...

ابتعد عن النافذة الصغيرة، واقترب من السرير. وبالرغم من هبوط الليل لم يفكر بإضاءة الشمعة، وتناول الكمان من علبته، ونقّل أصابعه الدقيقة على أوتاره مُصدراً صوتاً دوّى في أذنيه كأنين الرجال الذين ينضحون عرقاً.

توجَّه نحو المرآة، مسِّد شعره، تأمّل الرسم المعلق تحتها. امّه التي كان بالكاد يرى صورتها. تبدو أكثر شيخوخة، وأكثر إنهاكاً. تبدو وكأنها يائسة من كل شيء. تذكّر الرحلات الرائعة التي كانت تجرفه فيها مخيلته أمام المرآة والرسم، وأبعد عنه الأفكار الأخرى، وحاول أن يسافر. باريس... لماذا لا تتحدَّث عنه الصحف إلا قليلاً؟... برلين... لم تكن الفتيات تأتي إليه طالبة توقيعه... فيينا... لم تعد الجماهير تنتظره... لماذا؟ هل هي منشغلة بالثورة؟ لم تكلّل جولته بالنجاح.

عاد إلى الواقع مثقل القلب، يحمل حزن الفنانين المسنّين الذين نسيهم الجمهور، صورة أمه تختفي في الظلمة، وتجتاح الغرفة مع اقتراب الليل رائحة عفنة. علبة دهن الشعر فارغة.

مشى في الغرفة رافضاً أن يفكر. فتح الباب، توجّه نحو الدرج ثم عاد. سعلت المسلولة في الغرفة الخلفية. كانت السعلة ناعمة، خالية من القوة تقريباً. خرجت فيرا من الغرفة راكضة. وذهبت لتملأ الكأس ماءً. حيَّاها عازف الكمان، فأجابت بكلمات مبهمة:

ـ أختي. أختي.

ـ ماذا؟

لم ينتهِ من السؤال حتى رآها راجعة لأن المسلولة عادت تسعل بشكل، سكتت معه ماكينة الخياطة في غرفة دونا ريزوليتا. سمع عازف الكمان صوت جولييتا:

ـ يا لها من مسكينة! إنها مشرفة على النهاية.

رجع، ودخل في صمت الغرفة الضاغط حيث بدأ يسمع وقع خطى الرجال الصاعدين. تناول الكمان، وداعب أوتاره بأصابعه. انطلقت، من جديد، زفرة مؤلمة. حينئذٍ فقط تذكر ما حدث له بعد الظهر إذ استدعاه مدير مقهى مدريد ليعلمه أنه نظراً للأزمة، قرَّرت الإدارة أن تصرف أحد عازفي الكمان. لم يكن العازف الآخر في مستواه، لكنه أقدم في الوظيفة، من هنا، سيكون هو الضحيَّة.

أسرع المدير في تصفية حسابه، ودُفِع المستحقّ له، وقيمته ٤٨ ألف وخمسمئة ريس، قائلاً له بلهجة مؤاساة، بعد أن رَبَت على كتفه:

ـ لن يكون من الصعب عليك أن تجد عملاً أيها الصديق.

مكث جامداً كالأبله لبضعة دقائق. وما أن أصبح في الشارع حتى تعافى من صدمته. سيبحث عن عمل في إحدى الحانات، ولن يكون الأمر صعباً.

في هذه الأثناء، التقى "بورج"، وهو رجل هرم، قصير القامة، كان أستاذه فيما مضى، وهو اليوم، يعزف في إحدى صالات السينما. لم يعرفه تماماً للوهلة الأولى لفرط ما تغيّر. فَقَد الرهبة التي طالما تمتّع بها من قبل، وكذلك مظهر الواثق من نفسه. لم يعد يحمل العصا ذات القبضة الذهبية التي أهداه إياها أحد المعجبين المتحمّسين. وشارباه، شارباه الكثيفان الجميلان الأبيضا اللون، يتدليان اليوم على شفتيه مضيفين عليه مسحة ذلّ مأساوية.

ـ هذا أنت؟

ـ أستاذ بورج؟

روى له الشيخ العجوز قصة حياته. اضطّر أن يترك العمل الذي كان

يقوم به منذ خمسة عشر عاماً عندما ظهرت السينما الناطقة. بعد ذلك، عمل، بضعة أيام، في مقهى سوقي حيث استعيض عنه بالراديو ممَّا اضطَّره لبيع أوراق اليانصيب ليدفع بالجوع عن عائلته. احتقر ذلك العمل، غير أنه كان الحلَّ الوحيد المتوفّر. وما كان يؤلمه أشدَّ الألم هو اضطراره إلى سحب «إيزورا» من المعهد الموسيقي الذي تتابع فيه بنجاح سنتها السادسة. وهنا استنتج:

ـ أنت محظوظ لأن لديك عملاً. لا تضيّعه؛ لأن تأمين عمل آخر هو أمر غير متوفّر.

ـ لقد فقدته!

ـ ماذاتقول؟

ـ ٢ ـ

الليل يخيِّم على الغرفة، والأحاديث الدائرة في الغرف المجاورة تصل إلى الآذان. كانت بعض النسوة تقصد المغسل لتجلب الماء.

قيلت كلمة بصوت عالٍ علقت في عتمة الغرفة: أزمة. في الأسفل، وفي غرفة ألفارو ليما، يتناقش بعضُ العمال ويضعون المخططات. يشعر عازف الكمان بأن نوعاً من القرابة يربطه بذلك العامل الميكانيكي في مصانع) "لاسيركولير" الذي كان ينفق دخله لشراء الكتب، ووقته لحضور الندوات. وتبادر إلى ذهنه أنه إذا توصَّل العمال إلى معرفة أن الأزمة لا وجود لها إلاَّ بالنسبة إليهم، وليس بالنسبة إلى الأغنياء، فستتبدَّل كل الأمور.

اصطدمت قدماه بدفتر السامبا، فأمسك به بحقد ومزّقه إرباً... فوكس... ربّما نسي مقطوعاته المفضَّلة. أشعل الشمعة، وتناول الكمان، وبدأ يعزف مرثاة "ماسينه". انتشى فرحاً عندما أحسَّ أنه لم ينسها بعد، واحتجب كل شيء عن ناظريه. ملأت الأصوات، في هذا الوقت، حجرة الدرج المقطوعة من الكهرباء، فطردت رائحة البول.

عندما انتهى، كان قلب الشمعة يتلاشى، لكن ذلك لم يمنعه عن رؤية الرجال والنساء، الذين بالرغم من قذارتهم، وأسمالهم وعرقهم، كانوا منفعلين، ويصفّقون بحرارة. أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يستطع لأن بلعومه بدا وكأنه مفقود. مكث صامتاً، مرخياً بذراعيه كالفتيات القاصرات التي تستظهر "سنواتي الثمانية".

- ٣ -

تحتوي الصحيفة على الكثير من الأخبار السياسيَّة إلى درجة أنها لم تخصّ الحادث إلاّ بنصف عامود في زاوية الوفيات. مرفق برسم الميت الفوتوغرافي. أما نصف العنوان الذي كُتب بأحرف كبيرة فقد جاء كالآتي:

"جبان: يشنق نفسه لأنه عاطل عن العمل".

أمَّا التفاصيل فهي كما يلي:

استيقظ سكان الـ ٦٨، في "مونتي دي بيلورينيو"، هذا الصباح، على خبر مفاده أن رجلاً شنق نفسه في غرفته الكائنة في الطبقة الثالثة.

الرجل هو "مانويل أونتيل"، برتغالي، عامل مسرَّح منذ بضعة أشهر من مصنع "ريبيرو". شنق نفسه بشرشف معلّق بأحد جسور الغرفة لأنه عاطل عن العمل، وعاجز عن دفع إيجار غرفته المستحقّ منذ ثلاثة أشهر. للمسكين أربعة وخمسون عاماً. يعيش في البرازيل منذ ثمانية وثلاثين سنة. لا عائلة له.

"تلك حالة أخرى من حياة الجبن تجاه الحياة. فضل أن يموت، لأنه صُرف من الخدمة، عوضاً من أن يسعى لإيجاد عمل بديل. فإذا كان هناك من بلد يُحسد فيه العمال على وضعهم، ونقول ذلك باعتزاز، فهو البرازيل حيث يتوفّر العمل لكل من أراد أن يعمل".

نسي الصحافي القول إن "مانويل أونتيل" كان قد فتّش عن عملٍ في كل أنحاء المدينة، وأن الكلمة الوحيدة التي أجابه بها أرباب العمل كانت دائماً: أزمة؛ وأنه قد مضى عليه يومان دون أن يجد ما يقتات به إضافةً إلى أنه مهدّد بالطرد من الغرفة، وأشياء أخرى لا أهميَّة لها في نظر صحافي الريف الذي ينظم القصائد ويستعد لإجراء مقابلة صحفيَّة مع الرأسمالي "روميلو ريبيرو" المزمع أن يقوم برحلة ترفيهيَّة إلى أوروبا.

- ٤ -

أوقفت دونا ريزوليتا الماكينة، ونظرت من خلال النافذة الصغيرة، لأنَّ ساقيها تؤلمانها أكثر من العادة. كانت النجوم تتوارى خوفاً من الغد الذي يقترب. تركت الثوب الذي أوشك أن يصبح جاهزاً تقريباً، ونزعت نظارتيها، وتمتمت وهي خجلة من نفسها:

ـ سأنجزه غداً.

قالت ذلك، وراحت تفكّـر، وهـي تخلـع ثيابهـا لـترتدي قميـص النـوم، بالطريقة الـتي تمكنهـا مـن إزاحـة ليندا دون أن توقظهـا لتـترك لـهـا نصـف الفراش. توقّفت، وتأمّلت فليونتها (ابنتها بالمعمودية). لقـد تغيَّرت ليندا في الأيام الأخيرة. لم تسمح لـها بالتبرّع لكنيسة سيّدة البرازيل، مفضّلة تحويل المبلغ إلى المسلولة. كمـا أنهـا تهـادنت مـع جوليتـا، وتخلّـت عـن مطالعـة الروايـات، واستبدلتها بـالكتب الغربيـة الـتي يعيرهـا إياهـا الزنجـي هـنريك، واليهـودي الـهرم، وراحـت تفصـح عـن نيَّتهـا في أن تشـتغل، وأن تتعـاطى الخياطة.

لم يكن باستطاعة دونا ريزوليتا أن تفهم هذا التبدّل الكلّي الـذي حصـل بمثل هذه السرعة. لقد قامت بالنسـبة لليندا بالعنايـة الـتي لا تحظـى بهـا إلاّ الفتيات الموسرات الصغيرات. وطالما استطاعت ذلك، فقد أقامت وإياهـا في منزل صغير، في توريرو، وسهرت على حسن تغذيتها، وأدخلتها إلى مدرسةٍ رفيعة المستوى. انقلبـت الأحـوال، واضطـرت أن تشـتغل بالخياطـة لتعيشـا. اجتازتا التـلال والوهـاد حتـى انتهـى بهمـا الأمـر إلى حجـرة درج الـ ٦٨. وبالرغم من الضائقة الماديَّة، التزمت بالنهج الذي اتبعتـه وهـو ألاّ تـدع ليندا تقوم بأي عمل من الأعمال. كانت تحلم بأن تزوّجها من رجل غنيّ، وتقـدِّم نـذورات لقدّيسـين ذوي تأثـير كبـير، آملـةً أن يستجيب السيّد «بونفيـم» لتمنياتها. أمَّا الآن، فليندا هي التي تفسد مخططاتهـا بإصرارهـا علـى العمـل. وبما أنها لم تكن تعرف كيـف تفسّـر التغيُّر الـذي طرأ علـى لينـدا، كـانت تستسلم للأسف. ازدادت حدَّة الألم في ساقها. أزاحت ليندا برفق، ونامت.

- ٥ -

- جوليتا؟

- ما الأمر يا صغيرتي؟

- ديندينيا.

نظرت إلى الأخرى، ورأت عينيها المتّسعتين الجامدتين من الرعب. تلك هي المرة الأولى التي حصل فيها مثل هذا الشيء. من عادتها أن تستيقظ لتناول القهوة التي تحضّرها دونا ريزوليتا في الصباح الباكر. كانت العرّابة تستيقظ باكراً وهي عادة قديمة عندها. أما اليوم، فليندا هي أول من نهضت لأن ساقَي دونا ريزوليتا كانتا مشلولتين عاجزتين عن القيام بأي حركة، بالإضافة إلى الحمّى التي تلهب جسدها. في هذا الجوّ من الجمود، وتوقف ماكينة الخياطة عن العمل، ساد صمت لم تألفه من قبل. كانت ليندا كمن مسّه جنون. أما جوليتا وجوليا فقد قصدتا الغرفة حيث بدت المريضة وكأنها تحاول أن تعتذر عن عدم تمكّنها من العمل.

- ما هذا، يا دونا ريزوليتا؟

- سنعرف يا ابنتي، لكن ليس في الأمر ما يقلق. غداً سأكون في حالة جيدة. أسوأ ما في الأمر هو فستان دونا فرجينيا. يجب أن أسلّمها إياه اليوم.

انبرت جوليتا، وعرضت خدماتها.

ـ لا عليك. سأنجز الثوب.

التفتت نحو ليندا المنتصبة. دون جدوى قرب السرير.

ـ إذهبي وأحضري الطبيب. سأبقى هنا لأنجز الفستان.

ـ لا أعرف كيف أشكرك.

ـ على ماذا؟

ـ ٦ ـ

ظلّت ساقاها مشلولتين، وتبدَّد آخر مبلغ من المال ثمناً للأدوية. حاولت ليندا أن تخيط. لكنها لم تكن موهوبة لهذا العمل . باعتا، في أحد الأيام، ماكينة الخياطة التي أتاح لهما ثمنها العيش لمدة شهر من الزمن، في حين كانت ليندا تبحث في أيّ مكان عن عمل تقوم به حتى ولو اضطرت أن تعمل بائعة في مخزن، أو خادمة في حانة. غير أن الجواب الذي سمعته دائماً ـ أزمة ـ هذه العبارة التي أصبحت كابوساً. ساعدتها جولييتا، بادىء الأمر، بمدّها بالمال، ثم بالأغذية، بينما كانت أمور باقي الجارات تسير نحو السيء إذ لم يكن باستطاعتهن إلاّ أن تؤمّن ما تقتتن به. ذات يوم، لم تجد ليندا ما تضعه على الموقد، كما منعها الحياء أن تلجأ مرة أخرى إلى جولييتا. أمّا دونا ريزوليتا فكانت ترسل من فوق كرسيها "الهزّاز" نظرة إنسان خجول يشعر أنه مذنب. عانقتها ليندا ضاحكة، محاولةً تسليتها، غير أن المسلولة سعلت هناك في خلفيَّة المخيَّم، فانتابت ليندا رعشة لا تقلّ عصبية عن رعشة عرَّابتها.

- ٧ -

صعد ألفارو ليما الدرج ببطء، وألقى التحية على فتاة الثوب الأزرق التي كانت تنزل بصمت بمحاذاة الحائط. عند أسفل الدرج، أوقف الرجال المتجمعون هناك حديثهم، وأفسحوا لها طريقاً لتمرّ. أمّا هنريك الزنجي فعلّق قائلاً:

ـ لقد بكت مجدداً.

عند "السفرة" الثالثة من الدرج، التقى ألفارو ليما، الخرساء الطرشاء. توقف، وكلّمها بالإشارات، فضحكت بعينيها الشيطانيتين. صاح ألفاروليما:

ـ أيّ مصيبة حلّت؟

هزت برأسها، ثم جلست على درجة من السلّم ممدّدة ساقيها، وأدنت يدها من فمها، ومضغت، وأشارت برأسها أن: لا... وأتبعت ذلك بضحكتها السامة.

لم يفهم ألفارو ليما.

ـ يا للشيطان. ماذا يضحكك؟

لم تسمع سياستيانا، واستمرّت تضحك وعيناها تشعّان غبطةً، فرحاً كبيراً لأنها كانت تقول إن مقعدة حجرة الدرج ليس لديها ما تقتات به.

- ٨ -

صاحب الأسنان الناتئة هو من فسَّر لألفارو ليما إشارات الخرساء الطرشاء، بعد أن ساهم بمئتي ريس في حملة التبرعات التي ارتجلها محرّض الجماهير.

رفضت ليندا، بادىء الأمر، أن تتسلّم المبلغ؛ فقال لها ألفارو ليما إن ما يعطيه لها ليس سوى قرض تفيه عندما يتيسَّر لها ذلك.

هل تطالعين هذا؟

سألها عندما رأى على السرير كتاباً يتحدَّث عن وضع المرأة في روسيا.

ـ لقد أعارني إياه إسحق.

ـ هل يعجبك؟

لم تجب. فنظر إليها بشيء من الإهانة:

ـ لقد اعتبرتك دائماً فتاة صغيرة كسولة. أمَّا الآن، فأنت تسكلين الطريق الصحيح.

نظرت دونا ريزوليتا من على كرسيّها دون أن تفهم. أمَّا الرجل والفتاة فاستغرقا في الحديث. كان ألفارو ليما يتحدّث مع ليندا عن شؤون، غالباً ما تبدو لها غامضة. واقع الأحداث اليومية، تفهمه من جرَّاء فعله فيها أكثر ممَّا كانت تدركه من خلال خطابات المحرّض. تحبّ ألفارو ليما، ولا تستغرب

كونه لم يقل لها أبداً كلمة لطيفة.

- ٩ -

كانت حقيبة قِطع صابون البشرة، وزجاجات المنظِّف لكل شيء، موضوعة فوق صندوق الأفعى، وأرثور الممدّد فوق السرير، يمس بأحد ذراعيه المجدوعين صفحة الحائط، ويفكّر بعدم جدوى الحقيبة. لم يبيعا شيئاً في الفترة الأخيرة. لم يتركا الغرفة في الأيام القليلة الماضية. فقد أفنيا أحذيتهما، وبحَّ صوتهما، ولم يبيعا قطعة صابون واحدة، أو زجاجة من المنظِّف. والجوع يتراءى في الأفق. دعاه كاباسا المتسول الذي ينام تحت الدرج، وفي أكثر من مرة، للانضمام إليه ليتسوّلا معاً:

ـ تبدو وكأنك شبح بذراعيك المجدوعين. والأثرياء يهابون أرواح العالم الآخر.

دخل البائع المتجول، وانتظر سؤال أرثور. أمَّا أرثور، وقد استولى عليه يأس مطبق، فلم يطلب شيئاً.

ـ وأخيراً، كنت اليوم أوفر حظاً، أيها الصديق.

ـ ماذا.؟

ـ لقد وجدت عملاً للجميع.

نهض أرثور.

ـ أخبر!

ـ سنقوم بالدعاية لـ «سان تيسو»(*).

(*) ماركة قطعة قماش.

وأوضح أن المالك يبحث عن شيء يلفت انتباه المدينة، شيء يثير الضحك. عرس في الريف مثلاً... لقد نظّم كل الأمور. يجتاز الموكب شوارع المدينة ناشراً الدعاية لـ "سان تيسو".

ـ سأكون الزوج وأنت الإشبين. المحلّ يؤمّن "الكليكوت" للباس. لا ينقصنا إلاّ العروس. يجب أن تكون فتاة ظريفة. يصرُّ الرجل على ذلك.

كان أرثور يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً:

ـ هل تعرف الفتاة التي تقيم في حجرة الدرج؟ إنها تبحث عن عمل.

ـ فليونة تلك العانس، الخائطة العجوز؟ إنها جميلة. لكنها لن تفي بالغرض. فهي متطلّبة.

ـ إنها فتاة طيّبة. أتعهَّد بذلك.

ـ إطرح عليها الموضوع. عشرة آلاف ريس يومياً... أشك في أن تقبل لأن...

سكت بضعة ثوان.

لأن هذا العرس سيكون محطّ سخرية. نقوم بدور المهرّجين.

ـ عندما نكون محتاجين.

ـ ١٠ ـ

تجد ليندا نفسها في غاية التفاهة. فالقبّعة المزيَّنة بالزهور فوق رأسها،

والزنابق المتدلِّيَة من ثوبها، كانت تشلّ حركتها، ناهيك عن خدّيها المطليّين باللون الأحمر، وعينيها المنخفضتين خجلاً. كانت تشعر أنها غير قادرة على ذلك، ترغب في العدول عن لعب هذا الدور، لكن الأمر مستحيل. تبدو وكأن جميع زفرات العالم تختنق في بلعومها. أصوات آلات الموسيقيين الأربعة الذين يتقدّمون الموكب، ترنّ في رأسها. والبائع المتجول يرتدي لباساً رسمياً عتيقاً، وبنطالاً يصل حتى نصف ساقه، وقبّعة من القش، في حين كان أرثور بذراعيه المجدوعين المشكولين بالزهور، وجمجمته الصلعاء المدهونة بالأحمر، يجود بالفكاهات ليضحك الجمهور، يتخلّل ذلك دعايات لـ «سان تيسو».
وفي الخلف رجلان يمسكان لافتة كبيرة:

في الـ "سان تيسو".

تشكيلة كاملة من الحرائر الفرنسية.

أيها الخطّاب ابتاعوا جهازكم.

من الـ "سان تيسو".

زوروا الـ "سان تيسو".

أفضل تشكيلة.

أفضل الأسعار.

وليندا تثير الحماس لأنها، من خلال انزعاجها وحزنها، تبدو للمارّة وكأنها تمثّل دورها على أفضل ما يكون. كانوا يضحكون، ويطلقون النكات اللاذعة، بينما هي مستمرّة في صمتها، ممّا حمل أحدهم على القول:

ـ هذه هي القرويّة الحقّة...

ـ من؟

ـ يجب أن تكون ممثلة.

راح الطلاب والشيوخ يتفوّهون بنكات ماجنة. في شارع "شيلي"، شعرت بأيدٍ تمتدّ نحوها. فأوشكت الزفرات أن تفلت من حلقها. بالرغم من ذلك كان الخجل قد تلاشى عند انتهاء المسيرة ليحلّ مكانه حقد أصمّ غيَّر عينيها. لم تحلم إطلاقاً بالزواج. راحت تشتغل مع البائع المتجول صامتة، رصينة متآخية مع جميع الذين يسكنون في الـ ٦٨، من عمال، ومتسكعين، ومرضى، وخائطات، ومومسات.

ك ـ ت. اسبيرو

ـ ١ ـ

تحمل اللافتة اسم المخيَّم بأحرف متفاوتة، زرقاء وحمراء. بعضها أكثر علواً من البعض الأخر. يرى الداخلون إلى المخيم الكتابة معلَّقة في صالة الطابق الأول. بالرغم من ذلك، قليلون الذين يعرفون بوجود مخيّم في خلفيّة الـ ٦٨. فالممرّ المظلم للمدخل يمتدّ تحت الدرج، ويتيح بالتنقل لعائلة فرننديز التي تقيم في الطبقة السفلية من البناء وراء المخزن. غالباً ما يحدث أن يرتطم أحد المتأخرين بالعودة بكاباسا. أو أن يضع قدميه في بركة من الماء. ناهيك عن أن بعض الرجال يبولون في هذا الممرّ، ويبرّز الكلاب والهررة فيه. لذلك، لقّبه الزنجي هنريك "بسرداب البراز".

ستة عشر منزلاً بطبقتين. "منازل" ـ وفق ما يؤكده الإيصال الشهري الذي يعطيه مالك الـ ٦٨.

وصلني من السيد ريكاردينا أنتيل مبلغ ثلاثين ألف ريس، بدل إيجار شهر عن المنزل رقم ١٦، شارع ك ـ ت. اسبيرو و٦٨ مونتي دي بيلورينيو.

وحده المالك يسمّي ذلك منزلاً، أمّا المقيمون فيه فيقولون جحري، وهم على حق، لأن كل المنازل بالقياس نفسه، كناية عن غرفة متساوية القياسات، ٨ في الأسفل تعلوها ثمانية أخرى جدرانها من خشب،

وسطوحها من صفائح التوتيا.

يصبح المخيَّم، في الأيام المشمسة، محرقاً كالنار، إلى حدّ أن ما من أحد بوسعه أن يتحمَّل تلك المقصورات الخانقة ـ غرفة، شبه مطبخ حيث يرتفع قدر من الفاصوليا على أربعة حجارة. يملك البعض مواقد قديمة ابتاعها من الغجر السارقين. يمتدّ امام المخيَّم حوش من الإسمنت يستخدمه الأطفال كحديقة تسلية، والهررة بموائها الشبق كسرير زوجي، كذلك الكلاب القليلة الحياء التي تطردها النساء بالحجارة في حين يضحك الرجال بطيبة قلب؛ بينما تستخدم الغاسلات حوض الماء لتنظيف الثياب. معظم سكان ك ـ ت. اسبيرو، يكسبون قوتهم داخل هذا الحوش، باعتبار أن معظم المقيمين فيه هنَّ من الغاسلات، والكاويات اللواتي يساعدن أزواجهن العمال على إعالة العائلة متحملات غالباً القسط الأكبر من الأعباء. بالإضافة إلى مربّع من الأعشاب يسمّونه، بشيء من التفخيم، بستاناً لاحتوائه على شجرة بهار وحيدة، إلاّ أن الحوش لم يكن بتصرّف النساء كلياً. فقد سبق وأجَّره المالك مرتين لجماعات رحَّل من المهاجرين الذين كانوا يفرشون حصرهم ليأكلوا ما حملوا معهم من دبس قصب السكر، ولكي يناموا بانتظار المركب الذي سيقلّهم إلى الاستعباد في مزارع كاكاو «إيليوس» و«بيلمونث» و«كانا فيراس». وبما أن الاعتراض لم يكن يجدي، كانت الغاسلات تنشرن الغسيل في السرداب، وفي الصالات، وفي الغرف، لتنجز تنشيفه بالمكواة. ممَّا كان يرتّب زيادة في معدل استهلاك الفحم.

- ٢ -

أدارت "دوس ريس" رأسها، ورمت كيس الغسيل على الأرض، وجلست على صندوق الغاز ممدّدة ساقيها المتعبتين، وحلّت عقدة الشرشف الذي يلف ما تبقّى من قطع الغسيل.

كان المخيم ساكناً، لأن نهار الاثنين يتوجَّه الرجال باكراً إلى أعمالهم. بينما تقوم النساء بدورتهن على الزبائن لجمع الغسيل الوسخ الذي ترجعنه يوم السبت بعد تنظيفه وتنشيته.

راحت تفرز الغسيل، زبوناً زبوناً، مدقّقة في كل لائحة كي لا تضطر إلى دفع ثمن قمصان الحرير، ومناشف الحمّام.

تحرّك الزوج في الغرفة المجاورة ونادى:

- دوس ريس. دوس ريس!

- ما بك؟!

- هل رجعت؟

- لا. أجابت ضاحكة.

توجّه الرجل إلى الصالة مرتدياً قميصاً قطنيَّةً تكاد لا تصل إلى الصرَّة، وقبَّل المرأة في عنقها.

لقد حملت كل هذا الحمل؟

نظرت إلى ساقيه المكسوتين بالشعر.

ـ إذهب، والبس بنطالاً. فهذا أفضل. واغسل هذا الخرطوم. لا تزال عيناك ملطختين بالوحل.

ـ إنها عصيدة النفوس، يا عزيزتي...

تمدّد فوق الغسيل وجذب إليه دوس ريس التي راحت تقهقه كالمجنونة.

ـ انتظر قليلاً، سأقع.

ـ ستقعين بلطف.

ظلاّ متعانقين دون أن يشعرا بالرائحة المنبثقة من الغسيل الوسخ.

ـ أنظر. الباب مفتوح.

ـ وما همّ؟

أطلقت ببغاء السيدة ريكاردينا قهقهة رنّانة في البيت الأخير من المخيَّم.

قالت دوس ريس بصوت متلاشٍ:

ـ أرأيت أيها الأبله.

ـ ٣ ـ

ودّعها الزوج بقبلة وخرج. فصاحت ببغاء السيدة ريكاردينا:

ـ فلاّح!

مشت دوس ريس حتى السرداب، ولوَّحت بإشارة إلى زوجها الذي

يتوارى.

لن يعود إلاّ عند الصباح، فهو عامل على رصيف المرفأ.

سوف تدخل باخرة ألمانية، عند الظهر، وسيتمّ تفريغها في فترة ما بعد الظهر وأثناء الليل. تخيَّلت دوس ريس زوجها، وهو يتناول الصناديق التي تنتشلها الرافعة من مستودع السفينة. كان يرجع دائماً مسودّاً من الفحم، مبلّل الثياب بالعرق، تفوح منه رائحة لا شبيه لها.

قالت له دوس ريس، ذات مرة:

ـ إنك تفوح برائحة الكاشاسا الرديئة.

ـ هل حصل ان ذقت كاشاسا رديئة؟

يراود دوس ريس خوف خرافي من الرافعات بحبالها الفولاذية، وكراتها الحديدية. قضى أكثر من رجل تحت هذه الضواري السوداء؛ وفي كل مرة كان يخرج فيها زوجها إلى العمل، ينقبض قلبها، وتسري قشعريرة في جسمها الأسمر. وتقضي فترات ما بعد الظهر قلقة بانتظار الخبر المفجع عن موت زوجها تحت الآلة، فتشتغل بعصبيّة، وبالكاد تجيب على أسئلة رفيقاتها. فلا تعود المسكينة إلاّ بعد عودة زوجها برائحته الغريبة المتغلغلة في ثيابه، وجسده. فتجسّه من قدميه حتى رأسه فيما هو يبتسم هازئاً من هذه المخاوف. أمّا هي فكانت متأكدة من أن المصيبة ستحلّ في يوم من الأيام، فتتوسّل إليه أن يتخلّى عن هذا العمل، وإلاّ حكم عليها بألاّ تعرف الطمأنينة.

ـ لا تكوني غبيّة يا دوس ريس، لن يحصل شيء!

ـ لكنني خائفة...

ـ أن أجد عملاً في الوقت الحاضر، فذاك في غاية الصعوبة.

ـ هل تترك الأرصفة إذا توفّر لك عمل خارج هذا المكان؟

وعد الرجل:

ـ سأترك إذا تيسَّر ذلك.

ـ هذا يجعلني في منتهى السرور.

ـ أنت بيهمة كبيرة!

وفي اليوم التالي، عاود الذهاب لإفراغ السفن ذات الأسماء الغريبة التي كان يلفظها مشوّهة. وتبقى دوس ريس مرتبكة، متشنّجة، مستعدة للإسراع إلى مدخل شارع الـ ٦٨، لدى سماع أي صفارة إسعاف رغم أنها أخذت تستصعب الركض ببطنها ذي السبعة أشهر.

ـ ٤ ـ

يغنينّ وهنَّ يجهدن بغسل القمصان، والسراويل الصغيرة بالصابون، ويعصرن قطع الغسيل، ويضعن "البيتشولي"(*) في الماء لتعطير الثياب، لا يحبّ بعض الزبائن هذا التعطير لأنه يخفي حسب قولهم رائحة زنجية.

(*) عشبة عطرة.

كـانت تنضـمّ إلى غاسـلات الــ "ك ـ ت. اسبيرو" العشـــر، النسـوة المقيمات في حجرة الدرج أو في الطبقات الأخرى، وتستسلمن للثرثرة، ومـا يضاف إليها مـن تذمّـر وضحـك، عندمـا يتوقفـن عـن الغنـاء. خلاسيّات، برتغاليـات، وعربيـات، عجـائز وشـابات، يشـتركن في التعليـق علـى حيـاة الزبائن، ويعرفن كل ما يجري في البناية، شاكية كل واحدة منهـن أمرهـا إلى الثانية، لاعنةً الوجود. ثم يذهبن معاً إلى حفلات "الأولمبيا" المجانيـة. يعقـدن فساتينهن على أفخاذهن أو مرتديات سراويل تخلّـى عنهـا الرجـال. يتقدّمـن بالسن بسرعة تحت الشمس التي تنهال عليهن بقسوة في فترات ما بعدالظهـر الصيفيّة.

بالرغم من أنهن يلكــن الاتهامـات لبعضهـن بعضـاً، قـائلات بـأن المـرأة العربية الـهرمة المقيمة في حجرة الدرج، وهي أكثرهن مهارة، تضاجع ابنها، وتنزع الوسخ عـن الغسيل لتجعلـه علـى جسـدها؛ وأن دوس ريـس لوطيـة سلبيّة؛ وجوزيفا تنام مع الرجـال الذيـن تغسـل ثيـابهم؛ وأن فيتوريـا تدفـع زوجها إلى ضربها. كنّ على أحسن حال من التضامن، يقرضن الصابون لمن لا قدرة لـها على شرائه، وقسماً من الثياب الوسخة لمن قـلّ زبائنهـا، لتعـود هذه الأخيرات عندما يجدن زبوناً جيداً يدفعن ثمـن العمـل الـذي اقترضنـه في الأيام السيئة. ويساعدن حتى ماريّا التي ينفرن منها لأنّها لا تردّ ما تسـتعيره، ولأن جلّ ما تفعله هو صبّ اللعنات على أطفال وأولاد النسـاء الأخريـات، لأنهم يدوسون الغسيل المنشور في الحوش.

- ٥ -

لم تكن ماريّا، في الواقع، تطلب المساعدة إلاّ نادراً، لأن دائرة زبائنها تفوق دوائر رفيقاتها اتساعاً. فهي تغسل ثياب عدد كبير من الطلاب الذين يملأون فنادق "تريرو"، وشارع المطران، وتذهب في معاملتها معهم إلى حدّ الذلّ، خلافاً لمعاملتها للغاسلات وأولادهن. علماً بأن باقي الغاسلات لا ترغبن في غسل ثياب الطلاب المعروفين بأنهم من الفئة السيئة الدفع، ومن المماطلين في تسديد حساباتهم. يفضّلن التعامل مع ربّات البيوت، وأمهات العائلات اللواتي وإن ناقشن في الأجر لا تتردّدن في دفع المترتّب عليهن.

ماريّا التي تحصر عملها بالطلاب كانت توفّق في تحصيل أجرها دون أيّ تأخير، لأنها عوض أن تقوم بنفسها بجمع المتوجّب لها، ترسل ابنتها سيلوتا، فتاة في الثالثة عشر من عمرها، سهلة الخضوع والاستسلام، تحمل على ذراعيها آثار ضربات أمّها، وأظافرها، فيما لا تظهر على فخذيها ونهديها الصغيرين آثار مداعبة الطلاب، ولا تجد شفتاها أي نكهة لقبلاتهم، ولا تحتفظ بأي علامة لنهش أسنانهم، بالرغم من أنهما تورّمتا بادىء الأمر. عانت كثيراً لتألف الطريقة التي تستخدمها أمها لتحصّل بدل اتعابها لكنها، بفعل الوقت، وتحت تأثير الضرب، انتهت إلى الاستسلام، وتوصلت إلى درجة اللامبالاة المطلقة. فلذّتها الوحيدة هي في صنع أثواب اللعبة المبتورة الذراع التي أعطاها إياها حطّة ـ نطّة، وتدرك أن ما ينتظرها هو المصير نفسه الذي حلّ بأختها التي اغتصبها أحد الطلاب عشية الحصول على الديبلوم،

وهي لا تزال فتية. وقد قيل، وقتئذٍ، إن العجوز قبضت خمسمئة ألف ريس من والد الطالب لقاء إخفاء الفضيحة ـ والتي بعد أن تناقلتها أذرع كافة الزبائن، انتهى بها الأمر إلى مونتي دي تابوياو، حاملة طفلاً، ابن بضعة أيام، ولعنة ماريا الهرمة. ومع هذا، فقد استسلمت سيلوتا للأمر الواقع دون أن تفكر بما سيحدث فيما بعد، حاصرة همَّها، طبعاً، في التخلّص من ضربات أمها التي تتمتع بالرغم من شيخوختها، ونحالة جسمها، بقوة تضاهي قوة رجل.

- ٦ -

تشتغل فيتوريا بجدة وهي تغسل كومة الثياب التي جمعتها من رفيقاتها الأخريات. لم تسمع ما قالته جوزيفا وهي منكبة على فرك الغسيل بقطعة الصابون المغلّفة بورق الشمّام البّري:

ـ السيّد لوسيانو، هو من القذارة بما يحمل على الظنّ أنه يبرِّز في سرواله القصير. تذوب قطع الصابون ذوباناً.

ـ هذا لا شيء، لو كنت تغسلين ثياب بيرس... خنازير من الطراز الأول. لا يبدلون شراشف الأسرّة إلاّ مرة في الأسبوعين. كارثة.

ويتوسّع الحديث ليتناول بيت الزبائن. ثروتهم وترفهم. لم تسمع فيتوريا الحديث، لذلك لم تفتح فمها إلاّ لتلعن هرّاً مرَّ فوق منشفة معدَّة للتنظيف.

ـ أخرج من هنا أيها الهرّ. ـ قذفت حذاءها.

في الأسبوع المنصرم، عندما عاد زوجها من الشغل ثملاً، جذبها من قرب طاولة الكيّ، وحاول أن يضاجعها عنوة. قاومته فيتوريا بحجة أن عليها أن تعيد كثيراً من الثياب المنظفة إلى أصحابها. غضب، وصفعها عدة صفعات. بعدما استأنفت عملها بعينيها المحمَّرتين، وتنورتها المدعوكة، لاحظت أن المكواة قد أحرقت قميص الدكتور ألميدا.

قدَّرت ربّة البيت العطل بقيمة خمسة وخمسين ألف ريس.

- ٧ -

بالرغم من أن المخيَّم يتحوَّل إلى أتون في النهارات المشمسة، يفضّل المقيمون فيه الأيام الحارة على الأيام الممطرة، لأن المياه تتسرّب من ثقوب ألواح التوتيا، وتملأ البيوت. والريح تنفخ على الجدران الخشبيّة، وتجعل الحياة مستحيلة. عذاب في حر الشمس وعذاب أسوأ في الأيام الممطرة. أمّا المالك السيد سمارا فيجيب الذين يشكون من سوء الحالة:

ـ أين تجدون أفضل من هذا بثلاثين ألف ريس؟

ابتاع جواكيم الأعور ببغاء، وعلّمها أن تقول:

ـ ك ـ ت. اسبيرو... هنا أنتظرك.

ـ من تنتظر يا صاح؟

ـ السيد سمارا.

ـ لماذا؟

ـ ليقيم هنا. ليقيم هنا.

بالرغم من ذلك، لم تدم إقامة جواكيم الأعور في المخيَّم وقتاً طويلاً. فقد أُوقف، ذات يوم، بتهمة التسكع، وسكتت الأُلسن عن التحدّث عنه.

مستأجرون

- ١ -

عندما كان بعض مستأجري الـ ٦٨ يتركون مساكنهم، يخلّفون وراءهم ما يشبه الأساطير. حكايات تخبرها الأمهات للأولاد، وتنتشر في الشوارع المجاورة.

أحد أبطال هذه الأساطير هوالزنجي "تيميستوكل". حمل، عندما غادر الغرفة، أمتعة تشتمل في معظمها على أحرزة أفريقية، ومواد سحريّة. حسب أخبار النساء، كان الكثيرون من وجهاء المدينة يقصدونه، ويصعدون الدرج المليء بالجرذان لاستشارته. لا يترك "تيميستوكل" غرفته إلاّ ليذهب إلى بيت الخلاء، كذلك فيما يتعلق بوجبات الطعام؛ كان أحد الصبية يشتري له الفاصوليا السوداء، واللحم المجفّف، ويحملها إليه ليطبخها على مدفأة الغرفة. وممّا يُحكى أن الزبائن الأغنياء يقدمون له الثمار النادرة، والحلويات. يوم مغادرته تجمّع سكان البناية في الدرج ليروه لدى مروره. وتؤكد الحكايات أنه ولد في أفريقيا، وأن عمرهِ يتجاوز المئة بكثير، وأنه كان قد استُعبد في "سانتو أمارو".

لم تنسَ "دولسي" أن إحدى مستأجرات الطبقة الثالثة، أخبرتها قصة الزنجي، بعد أن قالت إن الغرفة لها تقاليدها: إنها تجلب الحظ، وأن

المستأجرة الأخيرة، وهي فرنسيّة متوسطة العمر، استعادت فيها شبابها بعد أن انتقلت إليها من الشارع الواطىء، ممّا جعل الرجال يتهافتون عليها، فأصبحت دقيقة في تسديد ما يتوجب عليها.

وُفقّت، في نهاية الأمر، برائدٍ مترمل مسؤول في الداخل• اصطحبها معه وتزوج منها. وهي اليوم سيدة ثريّة.

فكّرت دولسي وهي تنجز إقفال حقيبتها أن الأمور معها جرت بشكل مختلف. فقد فشلت، في معظم الأحيان، بالوقوع على رجل؛ وكانت تتأخر في الدفع، وها هي تستعدّ لإخلاء المكان، لتنحدر شارعين دفعة واحدة: «بيلورينيو» و«تابوياو» حيث منزلها الجديد. فزقاق تابایاو هو المرحلة الأخيرة. فمن هناك، إما أن تأخذ طريق برّاد الجثث، أو طريق المستشفى.

أمّا دولسي فلا تزال دون العشرين من عمرها.

- ٢ -

فاجأ القبض على الإسكافي الإسباني سكّان الـ ٦٨، وحملهم على الظنّ أنه أصبح مجنوناً. وحدها تلك القلّة التي تيسّر لها أن تتحدّث إليه، أدركت السبب الذي أدّى إلى توقيفه، ومن ثمَّ إلى إبعاده.

لشدَّة انطوائه على نفسه، وفرط رغبته في الانزواء مع هرّه وكتبه في غرفته، لم يوفّق في اكتساب مودَّة سكان البناية، كما لم يصبح محطّ كراهيتهم.

لم يعرف الجيران أنه فوضوي وملحد إلاّ بصورة مبهمة. هو من قدامى المستأجرين. يقيم منذ ست سنوات في حجرة الدرج دون أن يتعرض لأي إزعاج من عقيدته. لم يفسح في المجال للتحدُّث عنه إلاّ نادراً أثناء إقامته. مرَّة واحدة، ضرب إنكليزياً لأنه ضرب كلباً أجرب في وسط الشارع. لم يتعرَّض، يومها، لأي حادث. فالناس المدنيون والعسكريون أنفسهم أيَّدوه وانصرف بسلام. مرَّت ثلاث سنوات و لم يعد يتكلم أحد عن الحادثة عندما أصبح الإسكافي مجدداً موضوع أحاديث الغاسلات، والرجال العائدين من أعمالهم. لم يقف إلى جانب الإسكافي الإسباني، في هذه المرة، لا الشعب ولا العسكر: ذلك ما أثار دهشة الناس دون أن يعرفوا السبب. وحدهم بعض الرجال الذين اجتمعوا في غرفة الفارو ليما، واليهودي العجوز، أيَّدوا موقف الفوضوي، وشرحوه للآخرين الواقفين أمام باب الـ ٦٨.

إن ما حصل أثار، في الحال، فضيحة كبرى، لم يدرك أحد السبب الذي حمل الإسباني على رجم الشريط السينمائي، في إحدى فقرات الفيلم الأكثر دراميَّة.

الواقع هو أن فيلماً أميركياً كان يعرض مشاهد عن الثورة الروسية ويصوّر الثائرين يحرقون القصور، ويهدمون المنازل، ويقتلون مجموعات من البشر، ويقطعون الرؤوس، ويشوّهون الأطفال، ممَّا أسال دموع النساء المتتبّعات للفيلم.

- لم يحصل شيء على هذه الصورة، هذا عار.

قال الإسباني للجار الجالس إلى جانبه.

بعد ذلك صاح عالياً. إلاّ أن أحداً لم يسمعه. خرج من الصالة قبل انتهاء العرض. لكنه عاد في اليوم التالي والحجارة تملأ جيوبه. وفي اللحظة التي امتشق فيها رجل البحريَّة سيفه بذراعه الملتفّ بالدرع، وشهره بوجه طفل يبتسم ببراءة، وسرت القشعريرة في السيدات، تساقطت الحجارة على الشاشة ومزَّقتها. أضيئت الصالة فوراً، وظهر في الصف الأمامي رجل ذو رأس جميل، يكسوه شعر مخضَّب بالشيب، ويخترق جبينه شريان أزرق اللون ملفت للانتباه، وهو يقول بصوت هادىء:

ـ هذا شيء مشين، لم يحصل ذلك على هذا النحو.

اقتادته الشرطة.

ـ ٣ ـ

لاحظت العجوز التي تبيع "الأكاراجيه"، والمانغا، و"الكوسكوس"، و"المنكوزا"، عند مدخل الشارع، الجرح الذي يتّسع يوماً بعد يوم في رجل كاباسا ممتدا على طول الساق، وتعرف أنه لم يعد لضمادات الوحل والتراب التي يلصقها فوقه المتسول، من فائدة. يمتدّ الجرح يومياً وليس بإمكان المتسول أن يمشي. فكل خطوة يقوم بها تقطِّب وجهه.

تضاعفت إعانات المحسنين في البدء. إلاّ أن الساق بدأت تبعث رائحة تبعد النفوس العطوفة. كانت تنتابه حالات من اليأس أحياناً، فيغرز أظافره الوسخة في لحم الجرح الحيّ والمهترىء ليسحب أصابعه مغمسة بالدم؛ فأعلمت الزنجية العجوز الإسعاف الذي التقط كاباسا، في صباح أحد الأيام

المغطاة بالضباب بالرغم من صراخه واحتجاجه.

انتظر الجرذ "بيليه"، في المساء، صفير المتسول دون جدوى. ثم ذهب إلى تحت السقيفة يشمّ الغطاء المهجور. لم يكن كاباسا هناك، ومعه «الأكاراجيه» غير المفلفلة. وبما أن كاباسا لم يصفّر في الليالي اللاحقة فقد انتزع الجُرذ من ذاكرته صورة المتسوّل.

- ٤ -

ينام على رصيف ساحة الكاتدرائية، حتى في الليالي التي تحلّ فيها الغيوم محلّ النجوم. ليس لأنه لا يحبّ ذلك، بل لأنه مجبر أن يلتقي بسرير من ورق الصحف، فما يجمعه من المحسنين لا يكفيه لاستئجار غرفة، وهو لا يعرف سقيفة ينام تحتها. يقيم النذورات كي لا تمطر السماء، ويغمغم لاعناً عندما تتلبّد السماء بالغيوم، وتكنّس الريح غبار الأزقة الضيقة، ويقطع الأمل من إمكانية العثور على مكان ينام فيه. فأين باستطاعته أن يجد باباً مهجوراً أو طنفاً يفرش تحته صحيفته؟

ترتفع في وسط المدينة أبنية جديدة مقسّمة إلى شقق؛ ناطحات سحاب من عشر طبقات تذلّ المنازل القديمة ذات الطابع الكولونيالي. يقف على مداخل هذه الأبنية بوابون يرتدون اللباس الأزرق المزرّر كلباس الجنرالات، ويمنعون المتسولين من الاقتراب من المداخل للحصول على بعض المال.

كانت "زيفا"، وهي متسولة تجرّ وراءها أربعة أولاد مصابين بالاستسقاء، تنصحه بألاّ ييأس لأنه سيقع يوماً على مكان يعفيه من عناء

البحث، أما هو فيرى من الأفضل أن يقيمـوا سـوية في المـنزل الصغـير الـذي تشغله في مدينة القش البعيدة، فالمكان الذي يأوي خمسـة أشـخاص بإمكانـه أن يتسع لستة، بقطـع النظـر عـن أن الاثنـين، هـو وهـي، سيشـغلان مكانـاً واحداً. لم يفصح بالطبع عن ذلك لزيفا. ليس لأنها من الجميلات، وأن وجه القديسة الطاهرة الذي تحمله قد يدلّهم لسماع مثل هذا الاقتراح الداعـي إلى الاستسرار، بل بدافع الخجل الذي يمنعه عن هذه المطارحة، ويجمّد الكلمات في حلقه. خاصة وأن المرأة تخفي في عينيهـا شيئاً مـن الغصَّـة، شـيئاً يتجـاوز إدراكه، ويعجز عن تفسـيره، شـيئاً يرهبـه ويضطـره إلى تركـيز بصـره علـى عكازتيه ويديه القذرتين. يشعر أنه دونها مقاماً. إنه بعيــد عنهـا كـل البعـد، وليس بوسعه أن يبلغ حدَّها. يبحث عنها كل يوم في شارع "شـيلي" حيـث تتسوّل داعية المارة الالتفاتة إلى أولادها:

ـ أشفقوا على هؤلاء الأولاد الذين لا اب لـهم.

ذات صباح، ظهرت زيفا في ساحة الكاتدرائية، دون أن يتوقّع ذلك.

ـ هل من جديد يا زيفا؟

ـ أعرف باباً حيث بإمكانك أن تنام.

ـ أين؟

ـ في مونتي دي بيلورينيو؛ لا أعرف الرقم. إنها أضخم بنايـة في الشـارع ورديَّة اللون. لكن هذا اللون قد تغيَّر كثيراً.

ـ هل يسمحون للفقراء أن يناموا هناك؟

ـ ولم لا؟

ـ لو أن الأمر كذلك، لكان أحد هناك.

ـ كاباسا، كان هناك. ألا تعرف كاباسا؟ عجوز في ساقه جرح. نقله الإسعاف البارحة، وأصبح الدرج خالياً.

ـ أنتِ...

كان يهمّ ليشكرها. أوقفته:

حاول أن تقصد هذا المكان اليوم وإلا احتلّه شخص آخر.

ـ ٥ ـ

وصل، عند المساء، وحيَّا العجوز بائعة المانغا.

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير، يا عزيزي الأبيض.

جلس إلى جانب الباهيانية، على عتبة الباب، صامتاً لا يعرف من أين يبدأ، يضرب إسمنت الرصيف بعكازه. سألته المرأة، وقد لاحظت حيرته.

ـ هل تريد شيئاً ما؟

ـ مانغا المانيوك بفلسين.

وفيما هو يفرغ كوب المانغا، اتخذ قراره:

ـ كان أحد الشحاذين ينام هنا، أليس كذلك؟

ـ كاباسا... هو في الإسعاف، حالته سيئة جداً...

ـ ألم يكن الرجل يهمّه الأمر؟

ـ من؟ كاباسا؟ لم يكن يهتم بماذا؟

ـ لا. أنا أتكلّم عن شيء آخر. ألم يكن صاحب البناء ممانعاً أن ينام الرجل هنا؟

ـ السيّد سمارا؟ لا يأتي إلى هنا...

ـ أتريد أن تشغل المكان، إذا كان باستطاعتي أن أسمح بذلك؟

ـ أتمنى... إن لم يكن من أحد...

إذا كنت راغباً، إشغله فوراً، وإلاّ سيأتي غيرك.

قدم زبون فباعته قطعة سلطعون متبَّل، قالت:

ـ لا أدري كيف يستطيعون النوم هنا... فهناك جرذان وأوساخ...

ـ كنت أنام على رصيف الكاتدرائية، الأمر أسوأ. وعندما يهطل المطر...

ـ ترك كاباسا غطاءً. يمكنك أن تجده تحت الدرج، إن لم يكن قد رمي في القمامة.

سكتت هنيهة، وهي تنظر إلى النجوم، ثم تابعت:

ـ أحببت كاباسا كثيراً. كان غريب الأطوار إلى حدّ ما. أعرف أنه كان يتدبَّر أمره هنا تحت الدرج. وكان يربِّي جرذاً أيضاً...

ـ جرذاً؟

ـ نعم. أتجد الأمر طريفاً! وأنا أيضاً... هي المرة الأولى التي أرى فيها من يُعنى بتربية الجرذان... حيوان قذر... في كل يوم يمنّ علينا فيه ا لله، كان يشتري للجرذ فطيرة «أكاراجيه».

قامت بحركة بيدها، كما لو أنها أرادت أن توقف الزمن:

ـ ابتداءً من اليوم... أنظر، أعرف قصصاً كثيرة... أما الاهتمام بتربية جرذ، فذلك ما لا أعرفه إلاّ مع كاباسا...

سحب الشّحاذ مثتي ريس ليدفع ثمن المانغا، لكن الزنجية رفضت:

ـ لا ستكون زبوني. اليوم، هدية...

ـ شكراً؟

دخل. اكتشف الغطاء في الحال. مدَّد الجريدة، واستلقى وفرش الغطاء.

لم يغمض له جفن، في تلك الليلة، إلاّ قليلاً وسط رائحة البول، وجلبة الجرذان. لكنه ما لبث أن تآلف مع الوضع.

- ٦ -

مخرع ليّن المفاصل وعيناه تبدوان متباعدتين. خلافاً لأولاد الـ ٦٨، لم يكن منتفخ البطن. غير أن عظامه ترتسم تحت جلدٍ شاحب اللون. يدخّن لفافات رخيصة الثمن، ويشاهد أفلاماً متسلسلة، ويستقبل حطّة ــ نطّة

بصيحات ساخرة. وله مركزه في زمرة "زبيدو" في ألعاب السينما. الشهرة الواسعة التي يتمتع بها في أوساط باقي الأولاد، ترتكز على "التكشيرات" التي يقوم بها وعلى إمكاناته البهلوانية. يتلوّى بطريقة يعجز عنها سواه. ويمسّ رأسه بقدميه. ويقوم بقفزات خطرة تدهش رفاقه. يضاف إلى هذه الميزات كونه أفضل لاعب وسط متقدم في فريق كبار الهدافين ف. س. الذي ينافس فريق "بوت كول" البطولات في لقاءات مثيرة تجري في وسط الشارع، بكرة من الخرق. ويفخر بأنه يثير شأن زبيدو حقد حطّة ـ نطّة الذي يقول عنه:

ـ لو كان هذا الولد الرذيل إبناً لعائلة غنيّة، لما كان يرى أبداً في قدميه حذاء...

حلمه أن يصبح لاعباً في سيرك، بهلواناً يدخل بلباس مشعّ، ويتعرّى أمام الجمهور دون أن يبقي عليه سوى سرواله الصغير. يتصوّر نفسه متسلقاً سلّم الحبل حتى يبلغ الأرجوحة العليا حيث يندفع منها بقفزة خطرة نحو أرجوحة أخرى، بعد أن يكون مدير السيرك قد طلب إلى الجمهور والموسيقيين لحظة صمت، لأن أي خطأ طفيف قد يقضي على حياة البهلواني الشهير؛ يلي ذلك التصفيق، ورمي المحارم من الفتيات على حلبة الملعب. سألتحق، يوماً ما، بسيرك. قال ذلك لرفاقه. وإذا ما عدت بعد غياب طويل فلن تعرفوني، لأنني سأصبح شاباً جميلاً مثيراً للإعجاب.

ـ سترون.

ويهزأ الآخرون.

ـ أريد أن أشترك، بدون أجر، في سيركك...

ـ أنت تمـزح... بإمكـانك أن تمـزح... سـترون... ستطلبون الدخـول، وسأرسلكم خائبين...

ـ أخرس أيها المدَّعي! تتباهى، ولا تزال في طور الكلام.

ـ من باستطاعته أن يفعل هذا؟

التوى إلى الـوراء، وذراعـاه ممدودتـان، وأخـذ يقبـض شيئاً فشـيئاً على عقبيه.

ـ أنا أيضاً، أعرف أن أفعل ذلك.

ـ ماذا تنتظر...

تابع التواءه، وأدخل رأسه بين ساقيه. وفجأة، سمع صوت أمّه:

ـ خوسيه، أيها الولد العاطل، سأؤدبك! تعال حالاً، أيها الزقاقي!

ـ ٧ ـ

هي مولعة بهذا الولد الوحيد ثمـرة زواجهـا التعيـس. لقـد حلمـت بعـدَّة مشاريع متأملة أن تراه دكتـوراً يلقـي الخطابـات. أمَّـا طيـش خوسيه الـذي استعصت عليه الألف باء، والذي لا تكسبه الشـوارع إلا الجـروح والأورام، والذي لا تفارق السيجارة منقاده، حملها علـى اليـأس. علمـاً أنهـا لا تمتلـك المال لدفع قسط المدرسة الخاصة، وشراء حذاء ليدخـل إلى المدرسـة الرسميـة.

خاصة وهـي تعرف ما حلَّ بابن إيفون الذي ذهب إلى المدرسة حافي القدمين، والذي لفرط ما أسمعته المدرِّسة من كلام، هرب من المدرسة ورجع إلى البيت باكياً دون أن تتحرّك إيفون، وتُظهر للمدرسة أخطاءها. وبعد، ماذا تكون النتيجة؟ هو ابن فقير...

مثل إيفون هي وباقي الأمهات، كنّ ينتهين إلى الاستسلام. ما العمل؟ يترُكن أولادهنّ في الشوارع حيث لا يلبثون أن يعتادوا على السرقة، وشرب الكاشاسا، إن لم يصبح بعضهم لصوصاً. وتعود الأمهات إلى القول:

ـ هذا هو قدره...

ولاقتناعهن بالقدريَّة يترُكن الأمور تسير على هواها. صحيح أنهنَّ يبكين في الليل، ويحبسن حقداً خفياً يدقّ مع قلوبهن.

- ٨ -

استيقظ خوسيه دون أن يتمكّن من المشي. أصابه فِتق كبير في ثنيَّة فخذه.

ـ هذا ما تجنيه من هذه "الشقلبات"، ومن اللعب بكرة القدم...

استشارت الأم الجيران.

ـ الأفضل أن تستعيني بصلوات الأخرين. هذا جذري! يقال إن السيّدة ريكاردينا لديها خبرة في هذا الموضوع.

عند الساعة الثامنة مساءً، وصلت ريكاردينا وفي يدها سعف

«سينوبيار» طلبت إلى المريض أن يقف، ولمست جبينه بالسعف، ثم صلّت بصوت عالٍ وقادته حتى الباب.

ـ أنظر إلى القمر.

ـ لا أستطيع بسبب السطح.

ـ لا عليك. أنظر إلى السماء من هذا الاتجاه.

وأمرته أن يردّد:

أشفق أيها القمر اللطيف،
هذا الفتق هو شرير جداً،
اصطحبه معك في سفرك،
واجعلني أتعافى.

تلوا الصلاة ثلاث مرات.

ثم نصحت السيدة ريكاردينا قائلة:

ـ ضعوا الآن زيتاً حلواً مع هذا السعف في موضع الألم، وليلازم الولد الفراش، ثلاثة أيام.

قبضت عشرة فلوس لقاء صلاتها، وانصرفت وهي تتمتم بعض الدعاءات.

- ٩ -

أنبأت دونا ريزوليتا ليندا، لدى عودتها، وإصبعها ممدود باتجاه الغرفة المجاورة:

ـ قال الطبيب إنها لن تكمّل النهار على الأرجح.

ـ سأرى إذا كانت فيرا بحاجة إلى شيء.

نصحتها المقعدة:

ـ انتبهي يا ابنتي. هذا المرض يمكن التقاطه بسرعة.

لم تذكر الاسم، إنه مخيف جداً، وعندما سمعت السعلة المتواصلة، تأرجحت الكرسي بفعل تشنّج ما بقي من أعصاب دونا ريزوليتا.

جلست ليندا محبطة.

ـ يا له من أمر فظيع. لا أجرؤ على الذهاب...

وأتت، من الغرفة، نوبة سعال أخرى، فجعلتها تنتفض.

ـ أمر محزن!

ـ إنها تسعل الآن بصورة متزايدة؛ المسكينة! السعلة لا تنتهي... حضر الكاهن بعد الظهر. فقيرة. من أين لها الخطايا!؟

كانت المسلولة تسعل بصوت منخفض. ضمّت دونا ريزوليتا يديها،

وصلّت، بينما شدَّت ليندا المسند إلى أذنيها.

دفعت جوليتا الباب:

ـ هل أستطيع الدخول؟

جلست على الكرسي المخلّع وقالت ملمّحة إلى المسلولة:

ـ حالتها سيئة جداً... من الأفضل لـها أن تموت فوراً... فما الفائدة من الاستمرار في العذاب؟...

غيَّرت ليندا الحديث.

ـ وجوليا؟

ـ ستتزوج في الثامن من هذا الشهر. إنها تطير فرحاً لأنهـا ستتزوج من موظف في المصرف. كما لو أن المال هو الـذي يهب السعادة... في مطلق الأحوال، ذلك هو شأنها... إنها تهيء جهازها...

وبما أن المسلولة تسعل، فلسفت حديثها:

ـ يهيء البعض جهاز العرس، والبعض الآخر، الكفن...

فتشت في الكتب.

ـ أي رواية تقرأين في هذا الوقت؟

ـ لا. هذه ليست رواية. هذا كتاب جدّي ورصين.

ـ أوه!

- ١٠ -

جاءت فيرا، عند الصباح، بالخبر، وعيناها متورّمتان دون أن تعرف السبب. شعرت دونا ريزوليتا بارتياح كبير رغماً عن إرادتها. موت المسلولة يخلّصها من العذاب. خجلت وشعرت كما لو أن في الأمر خطيئة. ولكن رغم جهودها، لم تستطع أن تحزن أو أن تشفق. تلت سبحة صلاةٍ لراحة هذه النفس. لم تفهم لماذا هي مرتاحة وهادئة الأعصاب. لكن غياب الضوضاء المألوفة التي طالما أثارتها سعلة المسلولة، أحدثت نوعاً من الفراغ في حجرة الدرج. وباختفائها، سكتت كل الأصوات، واختفى الضجيج؛ وبغياب هذه السعلة المريضة امتدَّ السكون إلى الغرف وإلى القاعة.

- ١١ -

بعد نقل النعش، شرح السائق المقيم في الطبقة الثانية لصاحب الأسنان الناتئة قائلاً:

- السلّ مرض طبقي. إذا أصيب الفقراء بهذا الداء فليس بمقدورهم أن يعالجوا أنفسهم.

كانت الخرساء الطرشاء تضحك على الدرج ضحكةً تشبه الشهيق، وترعب الجرذان، وتقوم، لشدّة فرحها بحركات جنونية.

بصق صاحب الأسنان الناتئة:

ـ أيتها الشقيّة؟

- ١٢ -

بدت الفتاة صاحبة الفستان الأزرق وكأن لا علم لها بما يجري في البناية. استمرت بالنزول على الدرج كظلّ في وسط هذا الجمع من الرجال الناضحين بالعرق. أما بالنسبة للبيندا، فكل واحد من هذه الأصوات كان له معناه، تفيد منه أكثر بكثير مما تفيده من الكتب التي تطالعها في الساعات الأخيرة من الليل.

نازحون

- ١ -

دفع بهم الجفاف باتجاه الجنوب، في قاطرة من الدرجة الثالثة من "السنتاريم" التي استقلّها أيضاً عدد من الجنود. عندما انتهى مسافرو الدرجة الأولى من النزول، راحوا يقفزون حاملين بقجهم، وتجرّ النساء منهم أولادهن. قال الزنجي هنريك للـ "أحمر" وهو يرفع كيساً من الكاكاو إلى المخزن رقم ٦:

- أنظر كم هو عدد النازحين.

- الأحوال مرعبة هناك. أحرقت الشمس كل شيء.

رجال ذوو لون أصفر، ووجوه مقعَّرة، ونساء هزيلات محدودبات الظهر كالعجائز، بالنسبة لهن، لا تقاس التيخوخة بعدد السنين بل بعدد الأولاد.

توقّف الحمَّالون وتطلعوا إلى هذه القافلة البشريَّة التي كانت تتوزع جماعات صغيرة لا تعرف إلى أين تتجه.

- مجموعات ضخمة.

- أيّ مجموعات؟ كل تجمّع يشكّل عائلة.

- ألا تبالغ؟

ـ أقسم لك.

استعلم الذين لديهم بعض المال عن الفنادق الرخيصة، ونقلوا إليها أمتعتهم وعائلاتهم. أمَّا المجموعة الباقية، وتضمّ ثلاثين شخصاً، فبادرت إلى عقد اجتماع للتداول.

ـ أولئك هم أسوأ الناس حالاً.

ـ لا يشمون رائحة الفلس.

يبدو أنهم ينتخبون رئيساً، يسلّمونه بأيديهم المهترئة الأوراق المدعوكة في قعر جيوبهم.

اقترب الزنجي هنريك برفقة الأحمر.

أعلن الرئيس:

ـ تسعون ألف ريس...

شرح أحد الحمَّالين أن لا مراكب للجنوب قبل ثلاثة أيام.

سأله الرئيس:

ـ هل لك أن ترشدني إلى مكان يمكن أن نقضي فيه هذه الأيام الثلاثة، بتسعين ألف ريس.

ـ لجميع هؤلاء الأشخاص؟ لا أعرف.

قال الأحمر:

ـ من يدري؟ قد يكون ذلك ممكناً في حوش البيت.

ـ بلى. أكّد هنريك... لقد سبق للسيّد سمارا أن أجَّره لمهجَّرين منذ ما يقارب السنتين.

ـ قد يكون بوسعه...

للرئيس رأس غجري وليس رأس رجل من "سييرا"، ولون بشرته حاراً. يتجاوز في ضخامته الزنجي هنريك، ويرتدي سترة محبكة النسيج، ويلف عنقه بمنديل أحمر.

قال الأحمر:

ـ أظن أنني أعرف بيتاً يمكنكم السكن فيه. ليس بيتاً بالمعنى الصحيح، بل حوشاً من الإسمنت، يقع في "مونتي دي بيلورينيو"... وأضاف متطلعاً إلى السماء: "الطقس مؤات"، وهنالك بعض الطراوة.

دلَّهم على مكتب السيد سمارا. شكره النازحون وتحرَّكوا باتجاه المكتب، وهم يحملون طرودهم الصغيرة على أكتفاهم، مقوّسي الظهور، كما لو أنها تزن مئة كيلو غرام. من بينهم نساء يحملن صناديق كبيرة، وأخريات أولاداً، وفتاة في الثانية عشر تجرّ بإحدى يديها أخاً لها يبلغ من العمر ثلاث سنوات، وعلى ذراعها الثاني أخاً آخر في شهره السادس وهو يبكي. توفيت الوالدة في «سييرا».

ظلَّ هنريك يرافق الموكب بعينيه حتى توارى وراء بيوت المدينة الواطئة. وضع يده على كتف الأحمر:

ـ مساكين! يعتقدون أنهم سيصبحون أغنياء في الجنوب.

رفع الأحمر الكيس الذي يزن ستين كيلوغراماً:

ـ يا لـهؤلاء المساكين ـ اللعنة!

ـ ٢ ـ

طلب السيد سمارا أربعين ألف ريس في النهار بدل إيجار الحوش. فعرضوا ثلاثين.

ـ فليكن. سأتركه لكم بهذا البدل لأنكم في حالة سيئة، ولأنني لا أحبّ ألاّ أقوم بعمل إنساني... شرط ألاّ توسّخوا الحوش!

لم يسبق للرئيس أن أحبّ الصدقة. لكنه لزم الصمت، ودفع مسبقاً عن اليوم الأول، ثم صعد الموكب زقاق "تابوياو"، وفقاً لما أشار عليهم به أحد البنّائين.

ـ ٣ ـ

تابع الرئيس وهو ينظر إلى الأرقام. عندما وصل إلى الرقم ٦٨، توقف. فيما امتلأت النوافذ بالفضوليين.

ـ هم من الغجر.

ـ لا هم نازحون.

سأل الرئيس امرأة تقف عند الباب:

ـ هل لك أن تجيبيني إذا كان هذا المكان هو الذي يشتمل على الحوش؟ لأننا استأجرناه؟

حدَّقت المرأة بالرجل، وعيناها تتقلّصان من الضحك، ثم قهقهت بصوت عالٍ فيه من الرعب ما حمل الرجل على التقهقر إلى الوراء، والسيد "فرننديز" إلى الإطلالة من وراء مكتب مخزنه.

ـ لا تأبه لها. إنها خرساء طرشاء، مجنونة. هل تريد شيئاً؟

كرّر "السيرانس" سؤاله:

ـ آه. هو هنا. أدخل من هذا الممشى تجده في آخره في «ك ـ ت. اسبيرو».

ما أن توارى الرجال في الممشى المظلم حتى دمدم فرننديز:

ـ ستغضب الغاسلات الآن.

وبما أن الخرساء الطرشاء كانت لا تزال تضحك مشيرة إلى الفتاة الشاحبة التي تقود أخويها صاح فرننديز:

ـ إخرسي، يا ابنة البغلة!

ـ ٤ ـ

جمعت الغاسلات الثياب المنشورة، وهنَّ على مضض. وبقي إسمنت الحوش مبلّلاً، بينما ألقى النازحون رزم أمتعتهم، وفرشوا حصائرهم، وجعلوا

من الأرجوحات التي لم يتمكنوا من نصبها، أغطية لـهم. بينما راح العطـاش منهم يشربون من ماء القسطل بجرعات كبيرة، والمتعبون ينـامون على بقايـا العشب القاسية مغطّين وجوههم بقبعاتهم المصنوعة مـن القـش الخشـن. ثـم ظهرت تشكيلة واسعة من المناديل، بعضها أحمر اللون والبعض الآخر أبيـض مطرَّز بالزهور، وبعضها معقود حول العنـق بشـكل ربطـة، وبعضهـا ملتـف حول المعصـم. وقـد خبـأت النسـاء في زوايـا المنـاديل نقودهـن. والأمهـات يطعمن أولادهن قطعاً من السكر وخبزاً مبلولاً.

فتيان الـ «ك ـ ب. اسبيرو» جاؤوا بباقي صبيـة الشـارع ليتفرَّجـوا علـى النازحين. وقفوا أمام باب الممشى يتدافعون ويتزاحمون ليتمكنـوا مـن رؤيـة المشهد بكامله.

ـ ارفع يدك عن مؤخِّرتي. أنا لست دجاجة.

ـ أنتِ جبانة.

ـ أنظر إلى هذه المرأة العارية الصدر التي ترضع صغيرها.

ـ أين؟

ـ هناك.

ـ أنا أيضاً أريد أن أرضع.

ـ اذهب وارضع ما أفكّر به.

ـ هل عنيتني؟

اهتدى أحد النازحين إلى الفرن.

ـ انظروا يا قوم. فرن.

ـ سأشتري خبزاً طازجاً.

عاد برغيف عربي غريب الشكل يشبه الكرنيب.

ـ لا طعم له.

ـ هذا خبز غرينغو.

ـ سمعت أنهم يأكلون ورق الدوالي.

ـ في بلاد الألمان، يأكلون أعشاش العصافير. قال طحَّان.

ـ وغيرهم.

ـ هاه! الـهنود، لا يأكلون البشر.

ـ ليس البشر أوكار عصافير.

ـ من هم الأفضل؟

ـ كلُّ الاثنين لكي نرى.

ظهر بعـض عـازفي القيثـارة. وأنشـدوا بعـض أغنيـات بلادهـم البعيـدة، وتحديَّات لمطربي الأسواق الشعبية. نسيت الغاسلات غضبهن، واقتربنَ.

«تماديت في ألعاب الخفّة

حتى استدعاني الملك

ليزوجني من ابنته.

أما المهر الذي وعدني به فهو

أوروبا، وفرنسا وباهيا».

رقصت فتاة خطوات الكوكو القصيرة وسط تصفيق الرجال، بينما تـابع

صوت "السيرانس":

ـ قلت إنني لا أريد...

كانت الغاسلات لا تزلن تقـتربن، ولمّـا لم يعـد بوسـع فيتوريـا أن تقـاوم) رغبتها، اشتركت في الرقص، ترافقها، بالإضافـة إلى الأوركسـترا، موسـيقى "أكورديون" تحرِّك مفاتيحه أنامل رشيقة اشترك صاحبها في الرقـص متلاعبـاً بآلته بما يجعل الموسيقى تتماشى مع حركاته الراقصة.

المهر الذي وعدني به

أوروبا، فرنسا، وباهيا.

رقص نازحون وغاسلات معاً متناسين كل شيء.

توقّفت الموسقى فجأة، ولكن لتعود من جديد.

أوه، يا رقصة «الألاغواس»!

أوه، يا رقصة «الألاغواس».

ويهتـاج الجميـع بأجسـامهم الملتويـة إلى الـوراء، وعيونهـم المشـعَّة، وأصابعهم الرشيقة المتلاعبة بأوتار القيثارة، متناسـين العبوديـة الـهاربين مـن نيرها، غير آبهين بالعبودية التي سيرتمون في حبائلها.

أوه، يا رقصة «الألاغواس»!

ـ ٥ ـ

تؤرجح الصغيرة ابنة الثانية عشرة أخاها الصغير. تبحث بعينيها عن الآخر الذي أفلت من يدها، وراح يركض بين الأعشاب. يتمدّد أبوها البقّار المتين البنية، شاحب اللون ممّا عاناه من استفراغ طيلة أيام السفر.

ـ ها قد عدتّ ثانية...

ـ أنت، لست رجلاً.

ـ أنا رجل في الكدّ المتعب وليس في التأرجح فوق الماء. لن يتكرَّر ذلك.

كان الصغير يصرخ باحثاً في صدر شقيقته عن ثديين لم يتكوَّنا بعد. انبرت امرأة، أمّ منذ بضعة أشهر، وذات ثديين مليئين:

ـ سأرضع الصغير.

هكذا استمرَّ الطفل على قيد الحياة مستفيداً من حليب هذه المرأة أوتلك، فيما تنصرف الفتاة لتشكر المرضعات بنظرها الذي يشبه نظر امرأة رصينة. غفا الطفل وسط ضوضاء القيثارات بعد أن رضع بنهم الثدي المستقرَض. وانطلقت الفتاة تبحث عن أخيها الآخر، وأعادته إلى جانبها، وبقيت جالسة طيلة الفترة المتبقّية من النهار بالقرب من الطفل دون أن تشارك الأولاد الآخرين في الرقص، حتى دون أن تضحك، مكتفية بتبادل بعض الكلمات مع والدها.

- ٦ -

تناول المريض جرعة الكينا، وابتسم للممرِّض المرتجل.

- عندما سيتحسَّن الحال سأتدبّر بعض النقود، وأعود إلى "سييرا".

- تحنّ إلى مسقط رأسك؟

- وأيّ حنين!

سافر وهو مريض. قال للآخرين: سوف تتلاشى الحميات مع تبدّل المناخ. لكنها استمرَّت عنيدة، وأشدَّ قوَّة ممّا كانت عليه، بالرغم من السفر. كان في هذيانه يرى الأرض الجافة التي تنتظر المطر. يتخيل المواشي الميتة، والناس النازحين. يرغب في العودة ويرتاح في أرض الجنوب، من هذا الكاكاو الذائع الصيت الذي أثرى منه الكثيرون. يصغي إلى الحكايات دون أن يصدّقها. سيعود عندما يتوفّر له القليل من المال، حتى وإن لم يكن الجفاف قد ابتعد.

لم يعد.

مات بعد ذلك بثلاثة أيام على ظهر السفينة "مارو"، في الساعة التي أخذت فيها شجرات النخيل في "إيليوس" تلوح للناظر. كُفِّنت جثته بقطعة قماش أسود. وكفَّ الآخرون عن التحدّث بالعودة، وانتشروا بين الأغراس حيث لم يجدو الثروة. أمَّا أولادهم، فقد تعهَّد بتربيتهم بعض الكولونيلات،

ليصبحوا "كانغاسيروس". نسوا أخبار الأب "سيسيرو"، وعلَّموا أخبار "لامبياو". كما نسوا أيضاً أنهم جاؤوا طلباً للثروة. ما يشغل بالهم اليوم هي المبالغ الضخمة التي يتوجَّب عليهم دفعها لكبار المالكين.

خمارة

- ١ -

- جرعة "غنول" (*)؟

- لا تزعج نفسك.

كان الرجال يتكئون على الكونتوار، أو يجلسون فوق صناديق الصابون. تلك هي الحال في مقهى "فرنندينز" الذي يمتلىء بالزبائن حوالي الساعة السادسة من مساء كل يوم.

- هل تريد أم لا؟

سأل وهو يرفع الزجاجة حيث الجذور المنقوعة بالسبيرتو.

- هيا، أيها الرفيق، جرعة.

- لا تزعج نفسك.

- جرعة واحدة.

- هذا لا يبدّد الجوع.

(*) مسكر شبيه بالعرق.

صفّر صاحب القميص المضلّع القصير الأكمام من بين أسنانه المهترئة. شرب الغنول؛ كشَّر، وبصق. في هذا الوقت، كان حصى الجادة يتخذ لوناً وردياً عتيقاً، ولا تزال المصابيح مطفأة.

أفلتت البارحة أفعى هذا البائع المتجوّل، وأحدثت ذعراً جهنمياً بين النساء.

ـ إنها غير سامّة.

ـ هل قرأت صحيفة الأمس؟

ـ لماذا؟

ـ عائلة من سرتاو أكلت أفعى.

ـ يخنة أفعى! من يدري إذا كانت شهيّة؟

ـ إخرس.

أخفض الآخر رأسه.

ـ كأس أخرى من الغنول، فرنديز.

ـ كانوا يهربون من الجفاف، ومن "لامبياو".

ـ هه، أيتها الأفعى الحقيرة.

ـ اصمت.

ـ أسرع يا فرننديز.

ـ أكلوا الأفعى، وماتوا كلهم.

ـ الأفعى غير قابلة للهضم.

ـ الأب والأم والأولاد الستة.

بصق دفقة لعاب من فمه. الدرج المظلم يتراءى من الكونتوار. بإمكان الكثير من الشبان هنا أن يأكلوا الجرذان... مع الجوع الذي يعانون منه.

تشنّج وجهه بشكل غريب؛ تقلّصت شفتاه، وكذلك أنفه وإحدى عينيه دفعةً واحدة، ممَّا أضفى عليه مسحة من الاضطراب النفسي.

ـ يا قديسة مريم، أمّ الآلام!

ـ يقال إنه في أيام الحرب...

قال ذلك وهو ينظر إلى الجندي الذي ينزع الوحل عن طماقه بسيفه.

ـ أليس صحيحاً، أيها الرقيب، أن الناس يأكلون الجرذان في أيام الحرب؟

الجندي، بشيء من الادعاء:

ـ هذا، نعم، بالنسبة للألمان...

ـ والنتيجة.

نزع الزنجي المسواك من أذنه ليتسنّى له السماع بشكل أوضح.

ـ يأكلون حتى البشر... الجوع لا يستهان به.

ـ هذا ما يبعث على القيء. أجاب وهو يرفع شفته وأنفه وعينيه.

ـ لا أعرف لماذا.

ـ كان الجندي ينظر بشيء من الازدراء.

ـ كأس كونياك من النخب الأول، يا فرننديز.

ـ ألا تقدّم كأساً للأصدقاء؟

ـ حباً وكرامة. ما هو لي هو للأصدقاء.

ـ مثلما كنت أقول.

ـ استداروا باتجاه الجندي.

ـ الفلاحون ليسوا مهيَّئين. أما نحن أبناء الجيش... لا شيء يمنع اندلاع الحرب... ليس على الأرجنتين إلاّ أن تتحرَّك... لقد رأيت البرغواي.

ـ جدّي، كان أحد المتطوّعين... فَقدَ إحدى ذراعيه.

في هذه الأثناء، ارتفع في ظلمة الدرج صوت ألفارو ليما:

ـ بعد ذلك، أصبح عاجزاً عن القيام بأي عمل. أليس كذلك؟

ـ صحيح...

ثم تصدَّى الجندي.

ـ يكفيه أنه واحد من أبطال الوطن.

ـ كان: لأنه أقلّ ما يقال فيه هو أنه قضى جوعاً. أليس كذلك؟

ـ هاه. مات وهو يتسوَّل.

كان صاحب القميص المضلَّع قد أنهى لفَّ سيجارته.

ـ من الأفضل أن يكون الإنسان سفاحاً (بالأجرة) على الطلب.

ـ لكن الوطن... البرازيل...

بدا الصوت الصاعد في الظلمة أشدَّ قوة وسطوة:

ـ لا تعود الحرب بالفائدة إلاّ على الذين يحكمون، فهم يثرون... وعلى

الأغنياء يضاعفون ثرواتهم عن طريق بيع المواد الغذائية.

ـ أحسنت.

ـ إذا كان الكل يفكِّر على هذا النحو، فوداعاً يا برازيل.

ـ وهم، هل يفكرون بالبرازيل؟ ما يريدونه هو المال. الجندي هو مَن يموت في الحرب. ويموت على يد رفاقه... خدمة لمصالح الأغنياء.

حاول الجندي أن يجد جواباً؛ لكنه كان بمفرده، وخطوات الفتى الذي يصعد الدرج، تصل إلى أذنيه. أرجع السيف إلى غمده وتابع:

ـ غير أن الألمان وحدهم يأكلون الجرذان...

دخل الرجل. وحدها لحيته التي لم يمرّ الموسى عليها منذ عدة أيام كانت تلفت الانتباه.

ـ كان الفقيد أكثر بدانةً.

اتكأ على الكونتوار، وثيابه تتموَّج، وطلب:

ـ قطعة خبز بمئتي ريس.

ثم راح يفتش في قعر جيوبه. سمعه الآخرون يغمغم:

ـ هل أضعتها؟

أخيراً، وجدها، وقضم الخبز بنهشاتٍ كبيرة.

ـ يبدو وكأنه شخص مرموق.

عندما وصل إلى الباب، توقَّف. أراد أن يرجع. لكنه خجل؛ غرز يديه في

جيوبه ونزل الزقاق. عند ذلك، لاحظوا أن في إصبعه خاتماً من الماس.

ـ هذا للرهن؟

ـ أصمت. من يعرف لماذا يضعه؟

ـ قصة النساء هذه هي بلهاء.

ـ من يتحدَّث عن النساء؟

ـ هاه! لا أحد.

سأل صاحب القميص المضلّع، "فرنانديز" المنهمك بإجراء الحساب:

ـ ما حسابك؟

ـ ألف ومئتان.

ـ سجّله على الدفتر.

أشار "فرنانديز" إلى اللوحة المعلقة فوق الرف:

الدين غداً.

ـ لن يأتي هذا الغد أبداً.

ـ لنختتم بجرعة أخرى.

ـ ألف وأربعمئة.

يلف الرجل عنقه بشالٍ أحمر. شرب كأس "الكاشاسا" ودخل في الحديث:

ـ نهار سعيد.

ـ مساء الخير.

ـ صحيح. إنها الساعة السادسة.

وضع الكأس السميك، واقترح:

ـ كأس للجميع.

كانت الريح تتلاعب بالشال.

ـ هل تعرفون إذا كانت هناك غرفة شاغرة في الطبقة العليا؟

أفاد صاحب "الغميزة":

ـ توجد واحدة. نعم. المستأجر نشّال محفظات نقود، قبضت عليه الشرطة... الغرفة للإيجار.

ـ بإمكان أيّ واحد منّا أن يسرق.

ـ القضية، قضية جوع.

ـ طالما باستطاعتي أن أشتغل...

ـ وإن لم يكن العمل متوفراً؟

ـ أنا ألجأ إلى السرقة.

ـ المال السائب يعلّم الناس الحرام، يا عزيزي.

ـ هكذا، بكل بساطة؟

ـ أما رأيت ما الذي حلَّ بالعجوز "جيرونيمو"؟

ـ جرعة أخرى؟

ـ لا حاجة لذلك.

ـ مستقيم لا مثيل له. لكنه عندما رأى زوجته تموت جوعاً...

ـ صحيح.

ـ حكم عليه بالسجن خمس سنوات. المحلّفون، لم يعانوا من الجوع.

كان صاحب الشال الأحمر ينظر مذعوراً.

ـ قال له القاضي أشياء كثيرة، وهو بين جنديين. أما عن جرأة العجوز، فحدِّث ولا حرج.

في هذه الأثناء، كان رجل هرم يحمل ببغاء، ويجرّ "ليمونير"(*) على عربة من أربع عجلات، يعزف ألحاناً قديمة لأولاد الشارع. أصغوا صامتين يتّبعون الموسيقى المتغلغلة في ظلمة المقهى، بينما «فرننديز» يعدُّ أوراق النقود. حملت لفحة هواء قويّة رائحة بولٍ من الدرج. نهض صاحب القميص المضلّع. دفع. وقال بصوت عميق:

ـ لقد سبق وقتلت رجلاً... هناك في "أمازونيا"... وذلك لكي آكل.

تقوقع صاحب الشال في زاويته:

ـ هذا، يحصل لأيّ كان.

توقّفت موسيقى الـ "ليمونير"، وبدأ "فرننديز" يقفل الأبواب قائلاً بصوت عالٍ، سمعته صاحبة الفستان الأزرق التي كانت تصعد الدرج:

ـ أخبار...

(*) أرغل يحمل اسم مخترعه.

مهرجون

- ١ -

لا. لم يكن ذلك واحداً من السيركات الكبيرة التي تجوب عواصم العالم بأقفاص وفنانين عالميين، ومهرّجين يجيدون عدة لغات؛ وليس من تلك السيركات التي تملك سفنها الخاصة، وحيواناتها النادرة، زرافات، وأفراس الأنهار، لا. إنه سيرك صغير. سيرك معرض. أهمّ ما فيه دبّ هرم يُسقى البيرة حتى يسكر، تنصب خيمته في "كالاو" في باهيا بعيداً عن وسط المدينة. صحيح، يحمل اسم "سيرك أوروبا الكبير"، لكنه لم يكن سوى سيرك برازيلي متواضع يجوب مدن الداخل ناقلاً نشرات مصفرَّة اللون تشيد بالنجاحات التي حقّقها في "ريو دي جانيرو" و"بورتو أللغري"، و"ماسييو"، و"أويراس"، التي كان يعتقد الكثيرون من المشاهدين انها مدينة كبرى من مدن أوروبا.

بالرغم من هذا، كان "لودولينو" يعيش منذ عشر سنوات، في حنين إلى هذا السيرك، يمتلكه الحزن منذ أن انحلّت الشركة، واضطرت إلى بيع الدبّ والخيمة في «جوازيرو» لتحصل على المال الذي يؤمن لها السفر.

منذ عشر سنوات أيضاً، و«لودولينو» يقيم في البناية، في غرفة تحتوي على صور شمسيَّة قديمة. بعضها وسخ، وبعضها ممزَّق، وفيها يبدو، بصورة

غير واضحة، مرتدياً قميصاً أخضر، مجصّص الوجه، ومطلي الجبين بالرسوم. في تلك الفترة، كان "جوجوبا" ساحر الأولاد، وسكان المدن المنتشرة في الداخل. يبتدع الفكاهات، ويقوم بألعاب بهلوانية، ممسكاً دائماً بتلك العصا التي يعلّقها مقابل سريره. لكن الذي يؤسفه أشدَّ الأسف، هي التمثيليات؛ كان ضعيفاً تجاهها، على اختلاف أنواعها. لعب فيها الدور الأول المخصّص للذكور.

كم لاقى من نجاح!! لم ينسَ الملصقات:

«اليوم، ـ سيرك أوروبا الكبير ـ اليوم ـ
حفلة استثنائية ـ نجوم جديدة ـ الدب العالِم ـ
ليلي واستعراضاتها في الأرجوحة ـ سلم الموت ـ
هركول الذي يرفع ٢٠٠ كيلوغرام ـ الإيمائية
النابضة بالحياة: الرقيبان والفنان الكبير
جوجوبا»

ما أن يظهر على المسرح حتى يدوّي التصفيق. في الاستيلاء على "الباستيل"، أبكى جميع المشاهدين. ذلك كان نجاحه الكبير؛ عندما يمسك بعنق الكونت ويصرخ "خائن"، تنتصب القاعة وقوفاً في ردهة المسرح.

أصبح كل ذلك بعيداً... مضت عليه عشر سنوات. بينما لم يبق له في غرفته القائمة في البناية سوى لذة التحدّث عن أمجاده الغابرة.

منذ تلك الليلة التي قدّم فيها إحدى المونولوجات، بمناسبة حفلة أحياها

"زننديز"، أصبح يشار إليه بالبنان بأنه "الفنّان". وأخذت النسوة تقول: في الطبقة الرابعة، يقيم فنان هو السيّد "لودولينو"... الذي عمل في سيرك.

بعد الانتهاء من سرد أمجاده إلى الرجال عند أسفل الدرج، ينزوي في غرفته، يرتدي قميصه الأخضر، ويخطب، مردّداً الفكاهات القديمة العهد، متخيلاً ردهات مسارح المدن الصغيرة التي زارها. وما أن يعود، فجأة، إلى واقع الغرفة التي تثير رائحتها التقيؤ، حتى يبكي كما بكى يوم حمله سكان "أوبراس" على الأكتاف، كما يُحمل المنتصرون.

- ٢ -

يقال إنه مُسَّ بالجنون مذ قضى داء السلّ على ابنته في مدينة "سرتاو". نال، في أول عهد فتوّته، شهادة الصيدلة على أن يتبعها بدراسة الطب. لكن الظروف سارت عكس طموحاته. موت أبيه الخياط الذي كان يساعده، ويدفع كل شيء، ونفقات الدراسة؛ كان يعيش من تدريس الفيزياء والكيمياء والطبيعيات، لطلاب السنة التحضيرية، والسنة الأولى. ثم تزوج. كان يعرف أن زوجته ضعيفة البنية. عاشا سنتين تجمعهما عاطفة لا يخالطها اي غشّ، في بيت تزيّنه الأزهار، وتضفي عليه ابتسامة زوجته المريضة مسحة من الكآبة. اجتذبت دروسه الطلاب أكثر من بقية الدروس. اكتسب شهرة أستاذ متفوق واحترام تلامذته الذين يرونه إنساناً وقوراً بشعره الطويل المتماوج، ونظارتيه السميكتين بسبب ضعف النظر، وإن عدم قدرة بعض الطلاب على دفع ما يتوجَّب عليهم، لم يحمله على التقليل من احترامه لهم.

ممّا دفع بهم، ذات يوم، إلى إقامة حفلة على شرفه، ألقيت فيها الخطب، ودارت فيها كؤوس الشراب.

توفيت زوجته، بعد سنتين، مخلّفة طفلةً تحمل في دمها مرض الأمّ. ما أن بلغت الفتاة الخامسة عشر حتى نصحه الأطباء أنه إذا أراد ألاّ يخسر ابنته عليه أن يتخلّى عن كل شيء ويعود إلى "سرتاو". أقفل "أوتافيو" الصف، بعد أن أمَّن لنفسه عملاً كمدرّس للصفوف الابتدائية في "بونفيم"، ورحل.

استمرت صحة ابنته في التدهور بالرغم من تغيير المناخ والعلاجات، في حين كان يزاول تعليم الألف باء في المدرسة الرسمية. أحبَّه التلامذة كما أحبَّه الطلاب من قبل. لأنه خلافاً للمدرِّسة التي حلَّ محلّها، والتي كانت مقرعتها لا تتوقف عن الضرب. بالرغم من الحظر المفروض على ذلك، كان يواجه تلامذته بابتسامة ملؤها الرفق، وبوجه إنسان أتعبه الطريق الطويل الذي مشاه.

عاش "أوتافيو" وابنته ثلاث سنوات على هذه الحال. توفيت الفتاة بالرغم من أن المرض لم يُضعف جسدها إلاّ قليلاً؛ ولم يكن السعال ينتابها إلاّ نادراً. ماتت بصمت كما تموت ابنة أستاذ في المدارس الحكومية. لم ينتحب "أوتافيو"، لكنه أصيب بهذا النوع من الخبل الذي لازمه طوال حياته. صحيح أنه استمرَّ يمارس التعليم في المدينة لعدّة سنوات، غير أنه فقدَ ابتسامته المألوفة، وأصبح سريع النسيان، يطيل الوقوف أمام النافذة مرسلاً نظره إلى الأفق البعيد؛ ممّا جعل الأولاد يقولون لدى رؤيته في هذا الوضع:

ـ الأستاذ مصاب بالنوبة.

أخيراً، أحيل إلى التقاعد، ورجع إلى باهيا، وأقام في الطبقة الثالثة من الـ٦٨، بعد ملاحظته أن الناس يسخرون منه كلّما قصد أحد الفنادق العائلية.

أَلِف، في غرفته، التكلّم مع نفسه، وصنع الأشياء الخشبية.

نشرت، ذات مساء، إحدى الصحف مقالاً طويلاً عنه مرفقاً بصورته، وبكليشه عن آلة غريبة، وبتصريح يؤكد أنه اكتشف الحركة الدائمة. أمّا الصحافي الذي روى تاريخ حياته مشيراً إلى أمجاده الغابرة، فقد اختتم مقاله بكلمات يأسف فيها أن يكون الجنون "استولى على هذا الدماغ المشعّ المبدع".

لم يأبه "أوتافيو" كثيراً لما ورد في الصحيفة: وها هو عند المساء يشرح لصاحب الأسنان الناتئة أوالية الجهاز الذي اخترعه، ويحدّثه عن القطع التي لا تزال تنقصه، وعن الانقلاب الذي سوف يحدثه في ميادين الصناعة والعلم، متطلعاً إلى الأفق البعيد باتجاه النجوم، كما لو أنه يتحدّث إليها أو إلى مستمع يجلس بالقرب منه.

أنهى قوله بأن اسم الآلة سيكون "هيلينا":

ـ اسم جميل، ألا توافقني على ذلك؟

ـ بكل تأكيد.

ـ ذلك هو اسم زوجتي وابنتي.

الآن، وفي الساعة التي تسبق رقاده، كان صاحب الأسنان الناتئة يسمع وقع خطوات "أوتافيو" في الغرفة؛ خطوات موقّعة، موزونة، خمس إلى

الأمام، تليها استراحة، ثم خمس إلى الوراء.

أسماء بلا أسماء عائلة

- ١ -

نساء بلا أسماء. كلهن ماريا ومن جنسيات مختلفة. بعضهن متزوجات من رجال لا أسماء لهم أيضاً. وبعضهن عازبات، بدينات كن أو نحيلات، مريضات أو متعافيات، يجمعهن قدر واحد هو الفقر الذي يعشن فيه.

منهن من كن يزدن اسماً آخر على الأول: ماريا دابـاز، ماريا داكونشياسو، ماريادا انكرنساو، ماريا دوس انخوس، ماريا دو اسبيريتو سانتو. ومنهن من حملن ألقاباً: ماريا بانبان، ماريا ساندال، ماريا باتيسيير، ماريا لاكول، ماريا فيراغو. ولكن أكثرهن كن فقط ماريا فلان، ابنة أنطونيو، أو مانويل فلان، زوجة كوزم أو خسولينو فلان.

نساء يبعن الفواكه، يغسلن الثياب، يعملن في المصانع، يخطن، ويبعن أجسادهن. نساء بلا أسماء، نساء ٦٨ طلعة ـ المونتي دو بيلورنيو وبنايات أخرى مماثلة، اللواتي لم يحظين أبداً بشاعر يتغزل بهن، يرمزن دون شك إلى الإنسانية العاملة التي تتحرك في الأزقة وفي الشوارع المظلمة. وقد قيلت بحقهن جملة مجهولة المصدر:

ـ أناس بلا اسم... أناس بلا أب... عاهرات، غانيات.

- ٢ -

هل من يقولها لماريا كاباسو؟ ومن يجرؤ؟ لا تزال سمعتها حتى اليوم عابقة في البناية. وتحكي على الدرج القصص التي كانت تدور حولها.

اختفت كما ظهرت منذ سنوات، دون أن يعرف أحد من أين أتت وإلى أين هي راحلة.

كانت جريئة كعريف في الشرطة. وكانت كبيرة وقوية ككتلة من رجال المحيط. شعرها منتفش ومؤخرتها ضخمة. كانت تجذب الأنظار بتموجات جسدها المتين، رغم أنها لا تتمتع بصدر تقريباً وتشكو من أنف ملاكم أفطس.

كانت تحمل خنجراً لا يفارقها أبداً، انتزعته من "رجل" في منطقة ريو غراندي دوسول. كانت تقول: مسكونة بالأرواح، أكرا وبوليفيا. وعندما كانت تسكر كانت تتكلّم لغة إسبانية لم يتمكن، أبداً، السيد فرنانديز من فهمها.

كان يقال عنها:

- إنها وقحة...

في اليوم الذي استأجرت فيه غرفة، تشاجرت مع جار بسبب المراحيض. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، إذ أنه، في اليوم التالي، كانت الغاسلات يترثرن على المستأجرة الجديدة.

في البداية تدبّرت أمرها جيداً. ولكن الرجال لم يقوموا إلاّ بزيارة واحدة لها. كان من الصعب إرضاؤها عند الدفع، ولذا فقد أذت بعضاً من زبائنها. وقد نجح أحدهم في النجاة من ضربة سكين. وفي إحدى المرات، تدحرج على الدرج أحد رجال الشرطة، فيما كانت ماريا كاباسو واقفة في الأعلى تضحك ضحكتها الرنانة العابقة بالطفولة. كانت تدور حولها أساطير. استدعيت إلى مركز الشرطة، لارتكابها جرماً. كانت مالكة الطابق تفكّر بالتخلص منها، إنما كان ينقصها الشجاعة لتوجه لماريا كاباسو إنذاراً بالإخلاء. كان أنطونيو واكيم من ٤٣ قد نال حظوة لدى هذه المرأة القوية وتحمل منها كثيراً. لا شك بأنها كانت تسهر عليه، لكن المسكين كان وجهه مشطوباً. فانتهى به الأمر إلى الهرب، ولم يترك أثراً. حينئذٍ توجهت ماريا كاباسو نحو الأحمر الذي هادنها وتقرّب منها ليتجنب المشاكل.

أما الذي قضى على سمعتها المتأصلة، فهو شخص نحيل وفتي نوعاً ما. كان قد قدم إلى الـ٦٨، متميزاً برأسه الصيني الشكل، وبعينيه المتعبتين وبذراعيه الهزيلتين. وعرف عنه في ما بعد أنه جاء من سييرا ويعمل في مطعم.

ذات مساء تدبّر لنفسه بيتاً، وفي اليوم التالي ذهب وضاجع ماريا كاباسو. وصباحاً دفع لها الخمسة آلاف ريس المعهودة. فاكتفت ماريا كاباسو بالابتسامة وقالت:

ـ عشرون...

ـ نساء العشرين ألف ريس هي في فندق مونتي كارلو...

ـ حاول الزيادة، أيها الصبي، وإلاّ...

ـ نعم؟

شهرت الخنجر. لو لم يسمع الجيران المشاجرة، ولو لم يحضر بعض منهم نهاية المشهد، لما كان أحد ليصدق. فقد امتشق هذا النحيل الخنجر من ماريا كاباسو وتركها مدماة الوجه لكثرة الصفعات التي انهال بها عليها.

بعد ذلك توجه إليه الأحمر منبّهاً بهذا الكلام:

ـ أتعرف من ضربت؟

ـ العبدة الساكنة فوق... تحاول أن تتشاطر...

ـ هذه ماريا كاباسو...

وحكى له كل ما كان يجهل. فامتقع لون الرجل النحيل خوفاً. واختفى. سعت ماريا كاباسو في طلبه في كل مكان، لا لتنتقم منه؛ إنما كانت ترغب في مساكنته. لم تجده. جمعت أغراضها في حقيبتها الكرتونية وغادرت باهيا متحسّرة تحسّراً شديداً على هذا الرجل النحيل الذي صفعها. كان لصاحبة البيت في ذمتها بدل إيجار ثلاثة أشهر. لم تدفع.

ـ ٣ ـ

إنها عجوز صغيرة ذات شعر أبيض. كانت تقبض كل شهر في المركز التجاري الكبير مبلغ مئة وخمسين ألف ريس، ما يكفي لإعالتها. هذا المال كان يرسله لها أبناء العقيد "ليما". لم يقترن بها أبداً "الريّس" ولكن ظلّ زوجها لمدة ثلاثين سنة. عند وفاة دونا ماريا ريكاردينا لايت ليما، استدعى

العقيد ماريا الأخرى، وكانت خادمة لا تزال تحافظ على بقية من الجمال، لتنوب عن زوجته في السرير وترعى أبناءه. مات العقيد وانتقل الصبيان إلى أراضٍ أخرى. ولكن المركز التجاري الكبير ظل منتظماً بحيث كان يدفع لها كل شهر مئة وخمسين ألف ريس. كانت بحاجة لهذا المبلغ. كان إنفاقها إلى أقصى حدود التقشف: ستون ألف ريس للغداء، ثلاثون ألفاً للغرفة، وخمس مئة ريس أسبوعياً للوريقة التي كان يبيعها يهودي صغير. "مطرودة مساء عرسها"، كان عنوان القصة المثيرة أو العاطفية التي كانت تبكيها. وكانت تبكي أيضاً، عندما تحكي للغاسلات عن "ولدنات" صغارها، كما كانت تسمي أولاد العقيد ليما. كانت تأمل أن تراهم قبل وفاتها، ولذا كانت تطلب أن تقام القداديس على نيتهم في كنيسة اليسوعيين لقاء المال المتبقي لها. كانت تحتفظ لأولادها بالتبني بخصل شعر شقراء وبصور زادها الوقت اصفراراً.

وكل صباح، سواء كان ماطراً أو صحواً، كانت تضع فلساً في المراهنة على الحيوانات، بعدما تكون السيدة ريكاردينا فسّرت لها أحلامها.

ـ حلمت بالغيوم... راهني على التمساح...

ـ لماذا؟

ـ الغيوم هي الماء... الحيوان الذي يعيش في الماء هو التمساح.

- ٤ -

لم تعد تتذكر لا أباها ولا أمها. وذكريات الميتم لم تكن تحب إحياءها

عندما كانت يتيمة قاصرة. كانوا يستعملون معهم نظاماً غريباً للتخلص من الأكبر سناً بسبب الاكتظاظ السكاني في الميتم. كان يوضع مع كل فتاة لقيطة مبلغ مئتي ألف ريس. وعند بلوغها سن الخامسة أو السادسة عشر، كانت تعرض، يوماً ما، مع يتيمات أخريات، أمام شعرية أو سور بستان حتى يتسنى للبرتغاليين والخلاسيين اختيار زوجة لهم. وفي وقت سابق، كن يعملن رزمة صغيرة من القطن وينتظرن الزواج وكأنه بداية التحرر. وهو لم يكن عادة كذلك. كان البرتغاليون يشتهون المئتي ألف ريس وليس الزوجة. وهذا ما جرى مع ماريا دو اسبيرتو سانتو التي سخر من بساطتها البرتغالي ذو الشارب الطويل وانتقاها. وتزوجا في كنيسة الميتم. وعند المساء كان يغتصبها بعنف، بعد أن أفقده السكر نصف عقله. وقد ظنت أنه سيقتلها، فتلت صلوات الميتم. وفي الأسبوع الأول من زواجهما كوفئت بأول «فلق»، ولو لم يتركها بعد شهرين من ذلك، لكانت هي نفسها ولّت الإدبار. ولم تعرف شيئاً عن مبلغ المئتي ألف ريس. وتاهت هائمة على وجهها الليل كله؛ وطافت حول الميتم، دون أن تجسر على قرع بابه. وعند انبلاج الفجر التقاها بائع كوكايين فأشفق عليها وأخذها إلى بيته.

عاش معها طويلاً. كان "لحماً على عظم"، مرتجف اليدين، سكوتاً ورقيق القلب. ولم يكن يزعجها. حتى أنه قد يكون أحبها. إنما كان يعشق أكثر الكوكايين التي كان يتنشقها ويبيعها إلى نسوة يتعاطين بها. وقد طاردته شركة ريو، فهرب مع ماريا دو اسبيريتو سانتو إلى باهيا حيث اضطر إلى توسيع تجارته، لقلّة الزبائن في هذه المدينة؛ فباع بالإضافة إلى المخدرات، بطاقات بريدية خلاعية وكتب دعارة. لم يسبق له أن عرض

الكوكايين على ماري دو اسبيريتو سانتو. إنما عندما ضاقت بهما الحالة واستأجرا في الـ ٦٨، هي التي طلبت قليلاً منه. فتزنّرت عيناها بخطوط واسعة ورجفت يداها. وذات مساء ألقي القبض على رجلها بالجرم المشهود. فحلت محله وتابعت العمل مع الزبائن منتظرة دورها، هي الأخرى، للانتقال إلى السجن. وكانت كل مساء تتلو صلوات الميتم. ولكنها لم تعد تؤمن بأيّ شيء إلاّ بالبودرة البيضاء التي كانت تلفها بالنسيان الكامل.

- ٥ -

قليل من ناس الـ ٦٨ كان يعرفهم المستأجرون بأسمائهم. بعض منهم يحمل فقط لقباً. الفتاة ذات الزي الأزرق، لم يكونوا يعرفون عنها لا اسمها الأول ولا اسمها التاني. وإنما كانوا يحزرون أن لها اسماً، ومن الأكيد اسماً جميلاً وكبيراً.

الـ ٦٨، في طلعة مونتي دو بيلورينيو اختناق في البناية من شدة حرارة شمس الصيف الحارقة. كان يسمع من الغرف صوت الغسيل الذي كانت الغاسلات في الملعب "يطرطقنه" على الحائط الإسمنتي. وقد انقطعت النساء عن الغناء لارتفاع الحرارة.

ومن غرفته، كان هنريك الأسود يرى السماء الزرقاء بغيومها البيضاء المتناثرة كالخراف والبحر الأخضر الممتد أمامه امتداد البصر. فخاطب صاحب الأسنان النائتة:

ـ يوماً ما سأصبح بحاراً... سأتعرف على العالم... وأزور أمكنة أخرى...

ـ هل سبق أن غادرت باهيا؟

ـ حتى هذه الساعة، لا.

ضحك الأحمر، ولكن صاحب الأسنان الناتئة فرك أنفه بيده وقال:

ـ لا أعلم ما الذي يجري. أنا أيضاً أفكّر أحياناً بمدّ الأشرعة، بالرحيل... برؤية أناس آخرين... كإسحق...

ـ والريح لا تهب...

ـ على ذكر الريح، يجب أن أحكي لك، يا صاح! البارحة حدث شغب في المقهى... بشرفي!

اهتم الأحمر بالأمر وقال:

ـ احكِ لنا...

نظر الأسود إلى السماء وإلى البحر نظرة الوداع وتوجه إلى رفاقه بالكلام:

ـ كنت أشرب كأسي في مقهى البون كوان، مكان هادىء يا شباب. وإذا بسكّير يحدجني بناظريه. فما كان مني إلاّ أن ضربته فتدحرج على الأرض. تدخل شخص آخر لا علاقة له بالأمر يدافع عن هذا السكير. وكما قلت لك، يا صديقي، فإنني غرزت رجلي في معدة الآخر. سقط الحيوان ولذت أنا بالفرار.

ولما شعر بأن الأحمر لا يصدق كلامه، تابع قائلاً:

ـ والبرهان أنني لم أدفع ثمن الكاشاسا.

التفت إلى البحر ونظر إليه بحنان كصديق لم يره منذ زمن طويل.

ـ آه، أيها البحر! سأمخر عبابك يوماً...

ـ ٢ ـ

كانت بناية الـ ٦٨ مونتي دو بيلورينيو تبدو نائمة تحت حرارة ما بعد الظهيرة. إنما كان نومها خفيفاً. فإذا حطت ذبابة على هذا الحيوان ذي الألف ذراع لأفاقته بغتة من نومه، وبإمكان هذه الأذرع المتعددة، في ثورة غضبها، أن تحطِّم كل من يعكر نومها.

ـ ٣ ـ

عند المساء، فتش مطاردا البرغش، "حجرة السلم" ولوحظ أنه، للمرة الثالثة، حطمت لوحة الإعلان ـ التحذير الموضوعة على باب المراحيض... كانت اللوحة تحمل التنبيه التالي:

«بناءً للمرسوم كذا... إن أيّ مقيم أو أيّ مسؤول عن هذه الأمكنة سيعاقب بغرامة إذا تم اكتشاف بؤرة بعوض أو إذا لم يحافظ جيداً على هذا الإعلان».

نظر أحدهما إلى الآخر. كل شيء يشير إلى أن الخلاسي البدين يتقدم على زميله الموظف النحيل، ذي الشارب الأنيق.

ـ هي المرة الثالثة...

ـ وما العمل؟

ـ نقوم بواجبنا... نفرض غرامة...

خرجا من المراحيض. ولم يلتقيا بأحد أمام باب الحجرة.

ـ من يكون المؤجر؟

ـ لنسأل.

ـ ومن؟

ـ سنقرع أحد الأبواب.

لم يكن ذلك ضرورياً. كان توفيق قادماً. فسأله مطارد البعوض البدين:

ـ من هو مؤجر هذه الحجرة؟

التفت العربي حوله وقد باغته هذا السؤال.

فبادره الرجل النحيل:

ـ هل فقدت شيئاً؟

ـ لا. كنت أفتش عن الكلب الذي كان يتوجه إليه بالكلام صديقك. إنه لا يعرف كلمة من فضلك...

ـ عذراً. ولكن التنبيه مُزّق مرة أخرى.

ـ وما شأني؟ لا يوجد مؤجر هنا، فقط في الطوابق الأخرى. ويتمّ الدفع مباشرة إلى السيد سمارا.

ـ آه ! شكراً!

ذهب العربي إلى غرفته. بدأ الخلاسي البدين بتفسيراته:

ـ لم أسكته، لأن موظف الصحة العامة لا يمكنه أن يعطي المثل السيّء.

فوافقه الآخر:

ـ سترفع تقريرا إلى الرئيس.

- ٤ -

نظمت غرامة بحق السيد سمارا، فرفض أن يدفع. ليتدبروا القضية مع المستأجرين! كان يتوجب عليهم أن يجتمعوا ويدفعوا. إن المستأجرين أيضاً لم يستقروا على رأي.

أخذ الأمر يتعقد. فقد نقل الخلاسي البدين إلى الطبيب أن المراحيض أصبحت بؤرة للبعوض. دعا الطبيب السيد سمارا وذهبا معاً إلى البناية يرافقهما المأموران. وما أن صعدا الدرج حتى انتشر الخبر في الطوابق. رجال ونساء تسلقوا الأدراج وتكوموا على باب الحجرة. وفي الداخل كان سكان البناية يتناقشون تارة مع الطبيب وطوراً مع المالك.

ـ لست مسؤولاً عن هذه النتانة. أنتم توسخون. إنكم خنازير!

ـ الخنزير هو أمك! صرخ آخر.

تبجح السيد سمارا وسأل:

ـ من تجرّأ على هذا القول؟

تصاعد همس بين الرجال. فتراجع السيد سمارا. كان الطبيب ينهي فحص المراحيض، فضاعف الغرامة: إحداها لتمزيق التحذير، والأخرى بسبب تربية البرغش في المراحيض. وأعطى الإيصالين إلى المالك.

ـ نوجه بالكلام إلى هؤلاء الأوغاد.

ـ الوغد هي العاهرة التي ولدتك.

احمرّ وجه السيد سمارا. استدار الطبيب نحو الجمع وقال بلهجته المتسلطة:

ـ لننْهِ الأمر! ساهموا كلكم وادفعوا.

ـ إذهب إلى الجحيم فيدفع لك! إذهب إلى من يدفع لك!

ـ هل هي كلمتكم الأخيرة؟

برزت حينئذٍ فتاة من المجموعة واقتربت من الطبيب. إنها جوليتا، حافية القدمين، تلبس فستان حرير من نايير.

ـ سأشرح لك لماذا هذه النتانة. السيد سمارا لا يهمه ذلك، لا يريد إلاّ المال.

ـ تماماً!

ـ ونحن نعمل طوال النهار. ونكنّس غرفنا مساءً... من أين لنا الوقت لتنظيف المراحيض؟

فقاطعها السيد سمارا:

ـ أنت تعملين، يا عاهرة!

تقدمت جوليتا من العربي. تبعها جمهور الرجال والنساء. فتوسط الطبيب بينهم لأنه كان يقف إلى جانب المالك، قائلاً:

ـ الهدوء! الهدوء!

كان الشارع غاصاً بالناس. لم يلاحظ أحد أن الفتاة ذات الزي الأزرق، كانت تخرج إلى الشارع، غير مكترثة بما يجري. و لم يلاحظ أحد أنها عادت فبكت.

أكانت مشاجرة حجرة السلم تشغل كامل الانتباه. وقام الطبيب، يحميه صائدا البعوض، بتوجيه الكلام إلى الجمهور:

ـ إن الأمر لا يعنيني! إذا لم تدفعوا الغرامة، فسأغلق المراحيض!

ـ فليدفع السيد سمارا!

كان الجمهور يقترب والرجال الأربعة يتراجعون نحو الدرج.

ـ هذا أنا الذي مزّق التحذير والذي وضع البرغش في الحمامات!

ـ معك حق، قالها الطبيب مؤكداً. وأنتم حاولوا أن تدفعوا...

ـ أرْغِمنا على ذلك! صرخ أحدهم.

ـ يجب أن أرغمكم! سأدعو الشرطة إذاً!

ـ اطلبها، يا ابن العاهرة!

رفع السيد سمارا يده معرباً عن زائد كرمه وقال:

ـ حسناً!... كفانا جدالاً سأدفع أنا!

أما النساء فقد تكلمن عن حادثة حجرة السلم لمدة طويلة.رغم أن السيد سمارا قرر أن يدفع الغرامة، فإنهن تابعن التعليق علـى المجابهـة. كـن يتسـاءلن كيف أنه من هذه المجموعة من الناس المتنوعين؛ ومن أجناس مختلفـة والـتي لا رباط بينها غير درج الـ ٦٨ لم يتميّز صوت ويترفع مدافعاً عن المالك.

- ٥ -

بعيداً عن خلافـاتهم وعـن عـدم اكـتراثهم لحيـاة الغـير وعـن تعليقـاتهم النميميّة، فقد تجلّى فيهم تضامن طبقي، لا يمكن نكرانه، منذ ذلك الحادث.

ستعطي البناية دليلاً ساطعاً على ذلك عندما ستنفجر مشكلة الإضـراب. إن المشاجرة مع المالك ومع طبيب الصحـة العامـة قـد وضعـت حـداً نهائيـاً لخوف السكان.

الرقـم ٦٨ لمونـتي دو بيلورينيـو لم يعـد نائمـاً. فلقـد اسـتفاق فجـأة، فتحركت أذرعه الألف ونيف وسوف لن تتأخر أفواهه الستة مئة عن الزئـير أو الزمجرة.

الدرج

- ١ -

تثاءب الأحمر ضجراً، ولكن امرأة الطابق الثاني البدينة شدته بكم سترته القطنية القديمة.

ـ ما بك؟

كانا عند أسفل الدرج حيث بدت الظلمة مغبّرة اللون لأن بعضاً من أشعة شمس الظهيرة كانت تطال الدرجات الأولى.

رفعت المرأة يدها عن بطنها المترهل ومدتها نحو الطابق الأول. فلم ير الأحمر أولاً إلاّ نسيج العنكبوت الممتد أمامه وتساءل في نفسه مشمئزا، إذا كان الأمر يستحق أن يرفع رأسه ليرى شيئاً تافهاً. كالتهام عنكبوت لذبابة.

ولكنه تابع النظر وزاد اهتمامه، لأن المرأة جذبت انتباهه. كان العنكبوت يقترب بحذر من الذبابة، ويدور حول أسيرته هادئاً، متحسّباً ودون تسرّع. وفجأة قام بقفزة وأطبق على الذبابة. خفض الأحمر رأسه ونظر إلى المرأة:

ـ تباً لها!

فوجىء لأن المرأة لم تكن تنظر إلى نسيج العنكبوت. كانت تسمّر نظرها على باب الطابق الأول وكانت تبتسم، وفي عينيها الزائغتين حنان كبير. تابع الأحمر نظر المرأة واكتشف الزوجين في الأعلى.

كان الرجل حافي القدمين. وكانت ثيابه الملوّثة بالطين تدل على مهنته كبنّاء. والمرأة لم تكن تبدو خلاسية.

كان شعرها يتدلى على وجنتيها المبللتين بماء الحمام. تودّع الرجل العائد إلى عمله، وهو يغمرها بذراعيه، بعد أن أنهى طعام الغداء. ولكنه كان يقف مبتعداً عنها، يفصل بينهما بطن المرأة الحامل المكوّز والمضحك. إنما ليس بسبب هذا البطن كان ينظر الرجل إلى المرأة بعينين مداعبتين ويضع يديه الخشنتين على وجه زوجته المبلل وهو يلاطفها.

قالت الفتاة للرجل الأحمر:

ـ هذا ولدهما الأول...

شعر الأحمر بإزعاج مفاجىء ولكنه سيطر على نفسه ونظر إلى الغانية وهو يبتسم. وهي لا تزال تتأمل الزوجين.

ـ هذا يذكرني بصغيري...

ـ هل عندك ولد؟

ـ مات في الرابعة من عمره... كان جميلاً جداً...

وتساءل الأحمر في نفسه كيف ستكون هذه التي أُعطيت كل هذا الشحم في حالة الحبل. وابتسم.

وهل سيلتقي رجلاً يداعب بحب وجه هذه البنت المليء بالبقع؟

ابتسم من جديد. تأمل ملياً لدقيقة أو أكثر التورمـات الدهنيـة وكـاد أن ينفجر ضحكاً. ولكن الدموع كانت تنهمر على وجه هذه العـاهرة السـمينة والمنهكة.

أبعد الأحمر عينيه عنها وراح ينظر إلى الزوجين في الطابق الأول. أزعجه الأمر فعاد والتفت إلى الفتاة.

كانت الدموع لا تزال تسيل على وجههـا الذي أخـذ يتجمّل أمـام عيني الأحمر المعكرتين. وبدت جميلة إلى حدّ أنها صارت نحيلة. وإذا بالأحمر، بعـد أن شعر بعطف لا مثيل له نحوها، يمد أصابعه إلى شعر هذه المسكينة ويحـاول أن يتمتم كلمات لم يعرفها من قبل...

- ٢ -

طلب الأستاذ أوتافيو مـن لينـدا أن تنتظره وصعـد الـدرج أربعـاً أربعـاً. اقتربت الفتاة الخرساء ـ الطرشاء من بعيـد، كـانت تلّـح (بإشـاراتها). وهـي تدلّ على القرنفلـة الـتي تحملهـا بيدهـا. لم يكـد الأسـتاذ يختفـي حتى أتـت وأعطت الزهرة إلى لينـدا! مسـحت لينـدا بيدهـا وجـه الخرسـاء ـ الطرشـاء فابتسمت.

ـ من أعطاك هذه القرنفلة، ياسبستيانا؟

شرحت طويلاً وبكثير من الحركات بأنها من محل لبيع الزهـور لتقدمهـا إلى ليندا.

داعبت الفتاة شعرها. كانت سبستيانا تضحك صامتة بدون همهماتها العادية.

كان الأستاذ أوتافيو ينزل الدرج حاملاً قطع اختراعه. فعلا حينئذٍ صوت سبستيانا بضحكة قوية بشعة مشيرة إلى الأستاذ وهي تدير أصبعها صوب جبينها. توقف الأستاذ فوضعت ليندا أصبعاً على شفتيها لترغم الخرساء - الطرشاء على السكوت. وبعد ذلك قبلتها وهي تبتسم. فغادرت سبستيانا مسرورة وأوقفت جميع من التقتهم لتقول لهم إن فتاة حجرة السلم الجميلة جداً قد قبلتها.

- ٣ -

دلّها أوتافيو على القطع واحدة واحدة. وقد تكلف وقتاً لتفسير كيفية الاستعمال مع كل التفاصيل. كانت ليندا تشجعه وتبدي إعجابها بالآلة. لكنه لم يكن ينصت. كان نظره شاخصاً إلى بقعة السماء التي كان يراها من هذا المكان من الدرج. أخيراً استدار نحو الفتاة وقال:

- لا يصدقون... البشر لا يصدقون أبداً... ولكنهم سيرون يوماً ما... سيبدون إعجابهم بي رغماً عنهم... أنا مخترع الحركة الدائمة.

أحنى رأسه نحو ليندا.

- سأكون غنياً جدً... سنكون أغنياء جداً... هل ترغبين ي أن تكوني شريكتي؟

لم ينتظر جواباً.

ـ إنك تشبهين ابنتي... قولي لي ـ وقد أصبح صوته مضطرباً ـ هل تفكرين بأنني مجنون؟

ـ أبداً...

ـ هنا، يقولون ذلك، ولكن لا تصدقيهم... هو الحسد... لأنني اكتشفت الحركة الدائمة. ألم تقرأي لي هذه الجريدة ذلك اليوم؟ ولكن لا تصدقيهم...

ـ لا أصدقهم، لا...

ـ العظماء من الرجال يُعتبرون دائماً مجانين... ولو كانت امرأتي وابنتي على قيد الحياة لكانت قد اختلفت الأمور ...

وكان ينظر إلى بقعة السماء.

ـ كان عندنا بيت صغير... كانتا على جانب من الطيبة، ولكن هذا العالم لا يستحقّهما... هل تؤمنين بالله؟

لم يستغرب جواب ليندا.

ـ لا...

ـ لماذا أخذهما الله؟ كان يعلم جيداً أنني بحاجة إليهما. وكنت أؤمن بالله... صحيح أني اكتشفت الحركة الدائمة... ولكن زوجتي وابنتي... شيء آخر... أليس كذلك؟

وسمع وقع أقدام رجال يصعدون الدرج. فهمس في إذن ليندا:

ـ ستكونين شريكتي... وسنكسب كثيراً من المال... وإذا قالوا لك إنني مجنون، فلا تصدقيهم...

وأخذ يجمع قطع الآلة. ولما توقف الرجال، لاحظت ليندا حينئذٍ أن الأستاذ أوتافيو كان مرتدياً فراك (بدلة سوداء) ضاع لونها لقِدَمِها، ولم يكن يضع ربطة عنق.

ـ ٤ ـ

توقف الرجال لمحادثة قصيرة. فقال ألفارو ليما لليندا:

ـ الموعد آخر الأسبوع...

ابتسم صاحب الأسنان النائئة. كانوا يتحدثون عن الإضراب الذي سيقوم به عمال شركة الترامواي. اتكأ هنريك الأسود على درابزون الدرج وقال:

ـ يوماً ما سيكون إضرابنا على أرصفة المرفأ...

ـ ولكنك لن تتطوع، أيها الأسود! قالها الأحمر ضاحكاً.

ـ إنه لا يصدق أنني سأبحر يوماً.

كان يسمع من الدرج كل ضجيج البيت: توفيق الذي يصرخ في حجرة السلم. صوت السيد فرننديز في المقهى. وقع أقدام الإيطالية في الطابق الثاني. الفتاة ذات الزي الأزرق الذاهبة. وغناء الغاسلات اللواتي بدأن بمغادرة العمل.

زاد الليل من ظلمة الدرج.

انضم إسحق اليهودي إلى الفريق وأخذ يشرح لليندا:

ـ ألا ترين؟ لقد صنعنا درجاً آخر في البيت.

ـ كيف؟ الأحمر لم يفهم...

ـ أجل. الدرج كان الشيء الوحيد الذي يجمع المستأجرين... أما اليوم، فدرج آخر، وهو التكاتف الذي ننميه...

فعلّق ألفارو ليما:

ـ عمل صموت...

ابتسمت ليندا وأنصتت إلى جميع الأصوات:

ـ هذا صحيح، درج آخر...

وختم اليهودي.

ـ اليوم، لم يبق رجال ونساء ومستأجرون، بل جمهور... الجميع في حركة، وبعد قليل سيتسارعون إلى الدرج لحضور حفلة مجانية في الأولمبيا. صوت جوليتا يسمع من حجرة السلم:

ـ تعال فوراً، وإلا فلا تمثيلية...

وكررت ليندا:

ـ درج آخر... الحق معكم...

الجمهور

- ١ -

لم تكن الثرثرات التي أثارها شجار حجرة السلم قد انتهت بعد، عندما انفجرت قضية الإضراب. هذه المرة عملت البناية كتلة واحدة وكان المستأجرون قطعاً للآلة ذاتها.

ويبدو غريباً أن يكون الـ ٦٨ كله واقعاً تحت عواقب الإضراب، فيما عمال شركة الكهرباء وحدهم هم المعنيون.

كان إيقاف العمل قد تقرر نهار الجمعة: ألفارو ليما والمحرّكون الآخرون كانوا راضين. لن تتجمد فقط حركة الترامواي، ولكن معامل الشركة ستتوقف أيضاً حارمة المدينة من النور.

كان العمال يطالبون بزيادة الأجور. توسعت الخطة دون عقبة وتعهد عمال سكة الحديد وسائقو الأوتوبيسات وعمال المصانع الأخرى.

ولكن قبل يومين من الموعد المحدد لبداية حركة الإضراب، بدأت تسري شائعات بأن المضربين قد وُشي بهم، وتأكد هذا الخبر من جراء التوقيفات. فأخفق الإضراب.

- ٢ -

قامت الشرطة بحملة على الـ ٦٨. قال المفوض للسيد سمارا بأنه يشك بوجود خلية حزب هدام في البناية. لم يصدق السيد سمارا. وكانت مزحة سمجة...

التقى صاحب الأسنان الناتئة، والأحمر، وإسحق وبعض من لا علاقة له بالأحمر، في السجن. لم ينجُ هنريك الأسود إلاّ لأنه كان يغازل صبية على رمال أرصفة المرفأ عندما قامت الشرطة بحملتها.

عثروا في غرفة اليهودي على منشورات ثورية وكتب للينين. كان السيد سمارا يضع يديه على رأسه معتبراً أن شرف البناية قد دنّس.

كانت الشرطة تجدُّ في البحث عن ألفارو ليما، فاختبأ في غرفة ليندا. دونا ريزوليتا، وهي الكسيحة في كرسيها، كانت تعتبر ذلك أمراً غريباً. شاب في غرفة فتاتين.

ولكنها لم تفه بأيّ كلمة لئلا تحزن قليونتها. وفي الليل، لم تكن لتعرف للنوم طعماً، من خوفها أن يحصل شيء بين ليندا وهذا الشخص المثير للشغب. ولكن حساباتها لم تكن في محلّها. إذ أن الصبي كان يفترش الأرض نائماً نوماً عميقاً دون أن يهتم بالفتاة التي كانت تحلم في سريرها. دونا ريزوليتا كانت تتلو الصلاة الربانية كي ينتهي كل شيء على خير.

- ٣ -

كان عدد العمال المسجونين كبيراً. عمال من شركة الترامواي ومستأجرون في الـ ٦٨ و٧٧. تنظمت اجتماعات لتحرير المضربين. جرى الاجتماعان الأولان بشكل طبيعي. كتبت جريدة معارضة للحكومة في افتتاحيتها حول "حبس العمال المسالمين والطيبين المرفوض".

- ٤ -

قد تكون روح الفضولية هي التي دفعت سكان الـ ٦٨ إلى الدرج ساحقين الجرذان التي كانت تهرب مذعورة.

رجال ونساء انضموا إلى الجمهور الذي كان يملأ لامونتي دو بيلورينيو محتجين على حبس العمال.

زنود كانت ترتفع. جدعتا أرثور وزنود هنريك السود. الخرساء الطرشاء التي كانت تروح وتجيء، هي أيضاً كانت تتسلّى كثيراً. الجمهور يميد كمن تلسعه الريح. ارتفع صوت جوليتا:

- قطاع طرق! قطاع طرق!

كان الجمهور يساند بهتافات عالية.

كان ألفارو ليما، بشعره "المنبوش" يتكلم من على صندوق:

ـ رفاقنا المساجين يتعرضون للضرب...

وزعت مناشير. أطلت الفتيات من الشبابيك. كأن الناس في عيد. الوجه النحيل لبائع المنتجات البيتية. كانت تسمع أصوات بالعربية وأخرى بالإسبانية. كان السيد فرننديز قد أغلق مقهاه. عازف الكمان بشعره المقصف وتوفيق بلحيته غير المحلوقة. كل الـ ٦٨ كان هناك. كلهم نزلوا الدرج وكأنهم شخص واحد.

المفتشون قادمون من توريرو كانوا يصعدون لا رامب دو سافوتيه. ضاعت الرصاصة الأولى بين حجارة الشارع. لم يتراجع الجمهور. الرصاصة الثانية صرعت الخرساء الطرشاء التي أطلقت صوتاً رهيباً يحمل اللعنة. فصرخ ألفارو ليما:

ـ يا عمال جميع البلدان...

أصابته الرصاصة في جبينه، فسقط على ليندا. أحست الفتاة بالدم على وجهها وفستانها. لكنها لم تخف فلم تتحرك.

حينئذٍ هجم الجمهور على المفتشين رافعين أذرعهم.

ـ ٥ ـ

ومع رياح المساء، فاحت من الدرج رائحة الغسيل الوسخ ورائحة غرفة شخص ميت شعر بها كل الرجال والنساء.

- ٦ -

في يوم من الأيام، بعد عودة الشتاء مع أمطاره الطويلة ورياحه الباردة ولياليه التي لا تنتهي، (في حجرة السلم كان كلب يعوي من الألم، وهررة تموء في نزوها على سطح الحجرة). التقت ليندا على الدرج بالفتاة ذات اللباس الأزرق وهي بنفس الفستان ولكن دون أن تترك الدموع أثراً على وجهها توقفت أمام ليندا وبادرتها:

ـ أعذريني، ولكنني سعيدة جداً... هل تعلمين بأنني سأقترن بصاحب العمل... المجتمع الراقي... إعذريني... إنني أشعر بحاجة لأقول ذلك لأحد... أتمنى لك سعادة مماثلة.

تفرّست فيها ليندا بنعومة وشدت تحت ذراعها رزمة المناشير التي كانت تخبئها تحت سترتها، ونزلت الدرج حيث الجرذان تروح وتجيء وتتسابق غير مكترثة.

لاديرا دو بيلوزينيو (باهيا)، ١٩٢٨

ريو دي جانيور، ١٩٣٤

فهرس المحتويات